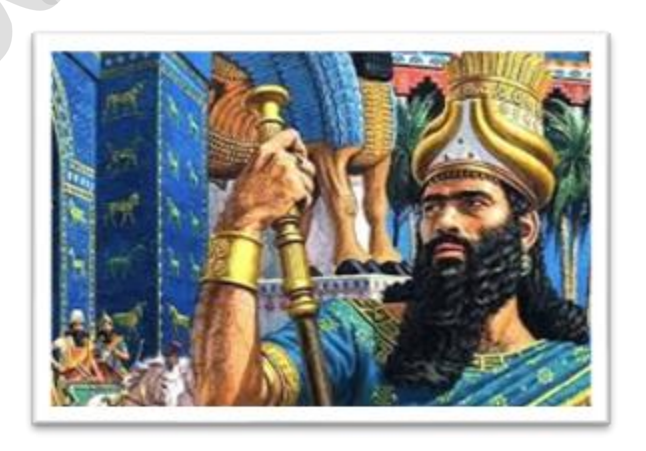
الشرق القديم

لمؤلفه: د.ج هوغارث

ترجم باستعمال الذكاء الاصطناعي

اعداد وتنقيح وضبط: مكتبة نوافذ الحكمة





شعار المكتبة التي قامت بالإشراف على الكتاب وتنقيحه وضبطه

الفهرس:

مقدمة المنقح:

بهذه المكتبة، سأحاول أن أجمع الكثير من الكتب، ثم بعد ذلك ترجمتها باستعمال الذكاء الاصطناعي والقيام بفهرستها يدويًا وتنقيحها وضبطها لتخرج بشكل مرتب وجميل، كي تكون مرجعًا للقارىء العربي.

هذا الكتاب، يدعى (الشرق القديم) وهو يتحدث عن الحضارات الشرقية القديمة.

مما يجدر ذكره أن هذا الكتاب يقع تحت نطاق الملكية العامة، لكن مع ذلك فإن تنضيد هذا الكتاب وتنقيحه محفوظ كحق فكري للمكتبة.

لن أطيل على القارىء المقدمة، فأضع بين يديه الكتاب كما هو.

زيد نائل العدوان (القائم على المكتبة)

مقدمة المؤلف

يحتاج عنوان هذا الكتاب إلى شرح، إذ يُمكن استخدام كل مصطلح من مصطلحاته للدلالة على أكثر من مفهوم واحد للزمان والمكان. يُفهم "الشرق" اليوم على نطاق واسع وبصورة مبهمة ليشمل جميع قارات آسيا وجزرها، وبعض أجزاء إفريقيا - الجزء الشمالي حيث يُشبه المجتمع وظروف الحياة إلى حد كبير المجتمعات الآسيوية - وبعض مناطق جنوب شرق وشرق أوروبا أيضًا. لذلك، قد يبدو من التعسف حصره في هذا الكتاب بغرب آسيا. ولكن يجب الاستشهاد بالمصطلح المُحدد في عنواني لتبرير ذلك. ليس شرق اليوم، بل شرق العصور القديمة، هو ما يجب أن أتعامل معه، ولذلك، أزعم أنه ليس من غير المعقول أن نفهم بـ "الشرق" ما فهمه المؤرخون الأوروبيون في العصور القديمة من هذا المصطلح. بالنسبة لهيرودوت ومعاصريه اليونانيين، كانت مصر وشبه الجزيرة العربية والهند هي الجنوب؛ وكانت تراقيا وسيثيا هي الشمال؛ وهنا كانت آسيا الشرق: إذ لم يتصوروا شيئًا أبعد من ذلك سوى مجرى المحيط الأسطوري. ويمكن القول أيضًا إن تقييدي، وإن لم يكن تعسفيًا في حد ذاته، فإنه في الواقع يُلغي التزامًا حتميًا بوضع حدود تعسفية للشرق. فالمصطلح، كما يُستخدم في العصر الحديث، يعني منطقة جغرافية تتميز بمجتمع من نوع عام معين، ووفقًا لرأيه في هذا النوع، فإن كل شخص يفكر أو يكتب عن الشرق، يُوسّع أو يُضيّق نطاقه الجغرافي.

ومن الأصعب تبرير التقييد الذي سيُفرض في الفصول التالية على كلمة "قديم". ويُستخدم هذا المصطلح بشكل أكثر غموضًا وتنوعًا من الآخر. فإذا كان يُشير عمومًا إلى عكس "الحديث"، ففي بعض السياقات، وخاصة في دراسة التاريخ، لا يُفهم الحديث عادةً على أنه يبدأ حيث انتهى القديم، بل يُشير فقط إلى الحديث نسبيًا. على سبيل المثال، في التاريخ، تمر الفترة غير المحددة بدقة، المسماة بالعصور الوسطى والمظلمة، بفترة استراحة طويلة قبل أن نعود، في عملية التأمل، إلى حضارة نعتبرها (في أوروبا على الأقل) قديمة. وفي التاريخ أيضًا، نميز عادةً بين منطقتين ضمن نطاق العصور القديمة المؤكد، وهما: ما قبل التاريخ والتاريخي، حيث تشمل الأولى كل الفترة التي لم تصل إليها الذاكرة البشرية، كما تنقلها الأدبيات الباقية، أو على الأقل، لم تصل إليها بوعي أو ثبات أو مصداقية. في الوقت نفسه، لا يعني ذلك ضمنيًا أننا لا نملك أي معرفة على الإطلاق بفترة ما قبل التاريخ. بل قد تكون معروفة لنا أكثر من أجزاء من التاريخ، من خلال استنتاج أكيد من الأدلة الأثرية. لكن ما نتعلمه من السجلات الأثرية هو تاريخي وليس تاريخيًا، لأن هذه السجلات لم تمر بمرحلة التحول التي يمر بها الذكاء البشري الذي يفكر في الأحداث كنتائج لأسباب. ومع ذلك، فإن الحد الفاصل بين عصور ما قبل التاريخ والتاريخ يعتمد بشكل كبير على ذاتية المؤرخين الأفراد، وهو عرضة للتغير مع تقدم البحث

بحيث لا يكون ثابتًا. ولا يمكن أن يكون هو نفسه بالنسبة لجميع الحضارات. ففيما يتعلق بمصر، على سبيل المثال، لدينا مجموعة من التقاليد الأدبية يمكن وصفها بأنها تاريخية، تتعلق بفترة زمنية أقدم بكثير مما وصلت إليه التقاليد الأدبية العيلامية والبابلية المحترمة، مع أن حضارتيهما كانت على الأرجح أقدم من الحضارة المصرية.

بالنسبة للشرق القديم كما هو مفهوم هنا، لدينا مجموعتان من التقاليد الأدبية التاريخية، وهما اليونانية والعبرية فقط؛ وكما هو الحال، فإن كليهما (على الرغم من استقلال كل منهما عن الآخر) يفقدان الاتساق والمصداقية عندما يتناولان التاريخ قبل عام 1000 قبل الميلاد.

علاوة على ذلك، غطى البروفيسور مايرز فترة ما قبل التاريخ في الشرق في كتابه الرائع "فجر التاريخ". لذلك، وفي جميع الأحوال، عند تناولي للفترة التاريخية، أبرأ من الرجوع إلى ما قبل عصرنا بأكثر من ألف عام.

ليس من الواضح أين أتوقف. إن سقوط بلاد فارس على يد الإسكندر، مُكملاً مرحلة طويلة في صراع دنيوي، وهو ما أتناوله في المقام الأول، يُمثل حقبةً أكثر حدةً من أي حدثٍ آخر في تاريخ الشرق القديم. ولكن هناك اعتراضاتٌ جسيمة على التوقف المفاجئ عند هذا التاريخ. لا يكاد القارئ يغلق كتابًا ينتهي عند هذا الحد، بانطباعٍ آخر غير أنه بما أن اليوناني قد سيطر على الشرق، فإن تاريخ القرون التي لم تنتهِ قبل أن تستولي روما على آسيا، سيكون ببساطة تاريخًا يونانيًا مُكبّرًا - تاريخ اليونان الكبرى التي امتدت على الشرق القديم وتسببت في فقدانه تميزه عن الغرب القديم. ومع ذلك، فإن هذا الانطباع لا يتوافق بأي حال من الأحوال مع الحقيقة التاريخية. كان الغزو المقدوني لآسيا الوسطى نصرًا حققه رجال الحضارة اليونانية، ولكنه كان نصرًا جزئيًا لتلك الحضارة. لم يستوعب الغرب الشرق إلا بقدر ضئيل آنذاك، ولم يستوعبه بقدر كبير حتى يومنا هذا. ولأسباب معينة، منها بعض رغم أن الحقائق الجغرافية - النسبة الكبيرة من السهوب الصحراوية والنوع البشري الذي تُنتجه هذه البلاد - ربما تكون الأقوى، إلا أن الشرق مُصرّ على رفض التأثيرات الغربية، وقد أسرها أكثر من مرة. لذلك، ولتسهيل الأمر وتجنبًا للوقوع في متاهة ما يُسمى بالتاريخ "الهلنستي" المجهولة، لن أحاول تتبع مسار الأحداث المتتالية بعد عام 330 قبل الميلاد، إلا أنني أقترح إضافة خاتمة تُهيئ القراء لما كان مُقدّرًا أن يخرج من غرب آسيا بعد العصر المسيحي، وتُمكّنهم تحديدًا من فهم الغزو الديني للغرب من قِبل الشرق. لقد كان هذا واقعًا أكثر أهمية في تاريخ العالم من أي غزو سياسي للشرق من قِبل الغرب* * * * * * .

على أمل تمكين القراء من فهم تطور التاريخ بوضوح، اعتمدتُ خطةً لدراسة المنطقة التي تُسمى هنا الشرق، على فترات زمنية محددة، بدلاً من الخطة البديلة والأكثر شيوعًا، وهي

دراسة الأحداث بالتتابع في كل جزء من تلك المنطقة. وهكذا، ودون تكرار أو تداخل، يُمكن للمرء أن يتوقع نقل إحساس بتاريخ الشرق بأكمله كمجموع تواريخ أجزاء مُحددة.

المناسبات التي ستُجرى فيها المسوحات هي نقاط زمنية عشوائية بحتة، يفصل بينها قرنان من الزمان. فالسنوات 1000، 800، 600، 400 قبل الميلاد، لا تتميز، في أي منها، بأحداث معروفة من النوع الذي يُسمى بأحداث صنع العصور؛ ولم تُختر أرقامًا تقريبية لأي أهمية تاريخية خاصة. كان من الممكن أن تكون 1001، 801، وهكذا دواليك، أو أي تواريخ أخرى مقسمة على فترات زمنية متساوية. أقل ما يُذكر هو أن التاريخ الألفي الذي أبدأ به ليس له أي فضل غامض. ولكنه نقطة انطلاق مناسبة، ليس فقط للسبب المذكور سابقًا، وهو أن الذاكرة الأدبية اليونانية - الذاكرة الأدبية الوحيدة للعصور القديمة التي تُعتبر ذات قيمة للتاريخ المبكر - تعود إلى ذلك التاريخ تقريبًا؛ ولكن أيضًا لأن عام 1000 قبل الميلاد يقع ضمن فترة اضطراب كانت خلالها عناصر وجماعات عرقية معينة، مُقدر لها أن تُمارس تأثيرًا مهيمنًا على التاريخ اللاحق، تستقر في مواطنها التاريخية.

كانت حركة الشعوب غربًا وجنوبًا، ناجمة عن ضغط غامض من الشمال الغربي والشمال الشرقي، والتي كانت تُقلق شرق ووسط آسيا الصغرى لأكثر من قرن، ويبدو أنها أنهت سيادة كابادوكيا هاتي، قد بدأت تهدأ، تاركةً شبه الجزيرة الغربية مُقسَّمة إلى إمارات صغيرة.

وعلى نحو غير مباشر، أدت هذه الحركة نفسها إلى نتيجة مماثلة في شمال سوريا. انتهت حركةٌ أكثر أهمية للشعوب الإيرانية من أقصى الشرق باندماج مجموعتين اجتماعيتين كبيرتين، تحمل كل منهما بذور تطورٍ أعلى، على الأطراف الشمالية الشرقية والشرقية لدائرة نفوذ بلاد ما بين النهرين القديمة. هاتان المجموعتان هما الميديون والفرس. وقبل ذلك بقليل، انتهت فترةٌ من الاضطرابات في الصحاري السورية والعربية، اتسمت بتوغلاتٍ متقطعة من البدو الرحل في الأراضي الواقعة على الأطراف الغربية، بتكوين دول سامية جديدة في جميع أنحاء سوريا من الشمال في أقصى الشمال الغربي (ربما حتى من قيليقيا بعد أمانوس) إلى حماة ودمشق وفلسطين.

وأخيرًا، هناك هذا المبرر لعدم محاولة إرجاع تاريخ الشرق الآسيوي إلى ما قبل عام 1000 قبل الميلاد بكثير - وهو أنه لا يوجد ما يشبه أساسًا زمنيًا مؤكدًا له قبل ذلك التاريخ. يبدأ تأريخ الأحداث في غرب آسيا بدقة مع نهاية القرن العاشر تقريبًا بقوائم الأسماء الآشورية، أي قوائم كبار المسؤولين السنويين؛ بينما لا يوجد تسلسل زمني دقيق في بابل إلا بعد ما يقرب من مئتي عام. أما في التاريخ العبري، فلم يُحدد أساس زمني دقيق إلا بعد أن بدأت السجلات الآشورية نفسها بالتطرق إليه خلال عهد آخاب ملكًا على إسرائيل. أما بالنسبة لجميع الفئات الاجتماعية والدول الأخرى في غرب آسيا، فعلينا الاعتماد على تزامنات فضفاضة واستنتاجية إلى حد ما

مع التسلسل الزمني الآشوري أو البابلي أو العبري، باستثناء بعض الأحداث النادرة التي يمكن استنتاج تواريخها من تواريخ مصر واليونان.

* * * * *

تشمل المنطقة، التي سندرس حالتها الاجتماعية في عام 1000 قبل الميلاد، ونعيد مسحها على فترات، غرب آسيا، ويحدها شرقًا خط وهمي مرسوم من رأس الخليج العربي إلى بحر قزوين. مع ذلك، لا يُرسم هذا الخط بشكل مستقيم تمامًا، بل ينبغي أن يصف منحنى خارجيًا ضحلًا، ليشمل في الشرق القديم جميع آسيا الواقعة على هذا الجانب من الصحاري المالحة في وسط بلاد فارس. تُحدِّد هذه المنطقة البحار من ثلاث جهات، والصحراء من الجهة الرابعة. داخليًا، تنقسم إلى حوالي ستة أقسام، إما بحدود جغرافية قوية بشكل غير عادي، أو باختلافات كبيرة في طابعها الجغرافي.

هذه الأقسام هي كما يلي:

(1) بروز شبه جزيرة غربي، تحده البحار من ثلاث جهات، ويفصله عن باقي القارة بكتل جبلية شاهقة وواسعة، وقد سُميت، ليس خطأً، آسيا الصغرى، لأنها تُظهر، في كثير من النواحي، نموذجًا للخصائص العامة للقارة. (2) منطقة جبلية متشابكة تملأ تقريبًا كل ما تبقى من الجزء الشمالي من المنطقة، وتتميز بوضوح في طابعها، ليس فقط عن هضبة آسيا الصغرى غربًا، ولكن أيضًا عن سهولها الواسعة ذات الطابع السهبي الممتدة جنوبًا وشمالًا وشرقًا. ربما لم يكن لها اسم واحد قط، على الرغم من أن الجزء الأكبر منها قد أُدرج في "أورارتو" (أرارات) أو "أرمينيا" أو "كردستان" في عصور مختلفة؛ ولكن للتيسير سنسميها أرمينيا. (3) حزام ضيق يمتد جنوبًا من كلا القسمين السابقين، ويتميز عنهما بارتفاع عام أقل بكثير. يحدها من الغرب البحر ومن الجنوب والشرق مساحات شاسعة من الصحراء، وقد عُرفت عمومًا منذ العصر اليوناني على الأقل باسم سوريا. (4) شبه جزيرة جنوبية كبيرة، صحراوية إلى حد كبير، مرتفعة ومحاطة بالرمال من جانب اليابسة، وقد سُميت منذ العصور القديمة بالعربية. (5) مساحة واسعة تمتد في القارة بين أرمينيا والعربية، وتحتوي على الأحواض الوسطى والسفلى للنهرين التوأمين، الفرات ودجلة، اللذين ينبعان في أرمينيا، ويصرفان الجزء الأكبر من المنطقة بأكملها. وهي ذات سطح متنوع، يتراوح من صحراء صافية في الغرب والوسط، إلى خصوبة كبيرة في أجزائها الشرقية؛ ولكن حتى تبدأ في الارتفاع شمالًا نحو حدود "أرمينيا" وشرقًا نحو حدود القسم السادس، الذي سيتم وصفه قريبًا، فإنها تحافظ على ارتفاع منخفض بشكل عام.

(2) لم يشمل أي اسم شائع جميع أجزائها، سواء المنطقة النهرية أو المناطق الواقعة وراء دجلة؛ ولكن بما أن مصطلح بلاد ما بين النهرين، وإن كان خاطئًا بشكل واضح، يُفهم عمومًا في الوقت الحاضر على أنه يُشير إليها، فقد يُستخدم هذا الاسم لعدم وجود اسم أفضل. (6) هضبة مرتفعة، مُسوّرة عن بلاد ما بين النهرين وأرمينيا بسلاسل جبلية شاهقة، وتمتد إلى حدود صحراء الشرق القديم. بالنسبة لهذه المنطقة، على الرغم من أنها لا تُشكل سوى الجزء الغربي مما يُفترض أنه إيران، يُمكن تخصيص هذا الاسم "دون تحيز".

الشرق في عام ١٠٠٠ قبل الميلاد

في عام ١٠٠٠ قبل الميلاد، كانت غرب آسيا عبارة عن مزيج من الدول الصغيرة، ولم تضم، على حد علمنا، أي قوة إمبراطورية ذات سيادة واسعة على الأجانب. ونادرًا ما وُصفت بهذا الوصف في تاريخها. ومنذ أن أصبحت ذات أغلبية سامية، قبل أكثر من ألف عام من دراستنا، خضعت لسيطرات متزامنة أو متتالية، مورست من ثلاث مناطق على الأقل داخلها ومن منطقة أخرى خارجها.

القسم ١. الإمبراطورية البابلية

كانت أقدم مراكز القوة هذه التي طورت إمبراطورية أجنبية هي تلك التي قُدّر لها، بعد تقلبات عديدة، أن تُحافظ عليها لآخر الزمان، لأنها كانت أفضل ما وهبت الطبيعة لإصلاح ما يُسببه وجود الإمبراطورية من هدر. كانت هذه المنطقة التي عُرفت لاحقًا باسم بابل، نسبةً إلى المدينة التي سيطرت عليها في العصور التاريخية، ولكنها، كما نعلم الآن، لم تكن مركزًا مبكرًا للسلطة ولا أمًا لحضارتها المحلية المميزة. هذا الشرف، إن كان مُستحقًا لمدينة واحدة، يُنسب إلى أور، التي كانت أيضًا أول إمبراطورية "بابلية" حقيقية والوحيدة. لم تكن سيادة بابل من فضل سكانها السومريين الأصليين، مؤسسي ما كان أسمى ما في الثقافة المحلية، بل من فضل دخلاء ساميين من منطقة بربرية نسبيًا؛ كما أنها لم تكن من فضل أقدم هؤلاء الدخلاء (إذا اتبعنا أولئك الذين ينكرون الآن أن سيادة سرجون الأكادي وابنه نارام-سين لم تمتد أبدًا إلى ما وراء الأحواض السفلية للنهرين التوأمين)، بل من فضل شعوب دخلت مع سلسلة ثانية من الموجات السامية. تدفقت هذه الهجرة من شبه الجزيرة العربية، الموطن الأبدي للمهاجرين الأقوياء، في القرون الوسطى من الألفية الثالثة قبل الميلاد.

بينما غمرت هذه الهجرة جنوب سوريا بـ"الكنعانيين"، إلا أنها في النهاية منحت مصر الهكسوس أو "الملوك الرعاة"، ولآشور سكانها الساميين الدائمين، ولسومر وأكاد ما أطلق عليه المؤرخون اللاحقون اسم السلالة البابلية الأولى. ولكن، بما أن هؤلاء المتطفلين الساميين لم يمتلكوا حضارة خاصة بهم تُضاهي الحضارة المصرية أو السومرية المعاصرة (التي تبناها المهاجرون الساميون الأوائل منذ زمن بعيد)، فقد استوعبوا هاتين الحضارتين حتمًا وبسرعة مع استقرارهم.

وفي الوقت نفسه، لم يفقدوا، على الأقل ليس في بلاد ما بين النهرين، التي كانت بالفعل شبه سامية، بعض الأفكار والغرائز البدوية، التي ستؤثر بعمق على تاريخهم اللاحق. من بين هذه

الأفكار، كان أهمها تاريخيًا فكرة دينية، يُمكن تسميتها، لعدم وجود مصطلح أفضل، بالتوحيد الفائق. غالبًا ما وجدت هذه الفكرة متجذرة لدى الشعوب المتجولة، وقد عاشت طويلًا بعد مرحلة الترحال، وهي تتمثل في الاعتقاد بأنه مهما تعددت الآلهة القبلية والمحلية، فإن هناك إلهًا واحدًا أعظم، ليس فقط واحدًا لا يتجزأ، بل يسكن في بقعة واحدة، وحيدًا على الأرض. قد يتغير مسكنه بحركة جماهيرية لشعبه، ولكن ليس بأقل من ذلك؛ ولا يمكن أن يكون له منافس حقيقي في السلطة العليا. إن حقيقة أن الإله الأب للساميين قد جاء من خلال تلك الهجرة الجماعية ليستقر في بابل دون أي مدينة أخرى من الأراضي الشاسعة المحتلة حديثًا، جعلت هذه المدينة تحتفظ لقرون عديدة، على الرغم من التغيرات الاجتماعية والسياسية، بمكانة مهيمن لا تختلف عن تلك التي احتلتها روما المقدسة من العصور المظلمة إلى العصر الحديث.

ثانيًا، جلب العرب معهم غريزة القلق التي ورثوها عن حضارتهم القديمة. هذه العادة غالبًا ما تستمر في المجتمعات المستقرة، حيث تجد الرضا في اللجوء السنوي إلى حياة الخيام أو الأكواخ وفي النزهات السنوية للصيد. أما عادة "الرزية" أو الغارات الصيفية، التي لا تزال إلزامية في شبه الجزيرة العربية على جميع الرجال ذوي الحيوية والنشاط، فقد حظيت بتكريم متساوٍ لدى العالم السامي القديم. وباعتبارها أمرًا طبيعيًا، سواءً أكان ذلك باستفزاز أم لا، فقد كانت أصل تلك المسيرات السنوية نحو الحدود ومنبعها الدائم، والتي تذكرها لنا الآثار الملكية الآشورية بفخر، مستبعدةً بذلك جميع المعلومات الأخرى تقريبًا.

كان كدر لعومر وأمرافل والملوك الثلاثة الآخرون يؤدون واجبهم السنوي في وادي الأردن عندما اعتقدت التقاليد العبرية أنهم التقوا بإبراهيم؛ وإذا كان عمرافل، كما يبدو متفقًا عليه، هو حمورابي نفسه، فإن هذا التقليد يُثبت أن عادة "الرزية" راسخة في عهد الأسرة البابلية الأولى. علاوة على ذلك، ينبغي أن نضع في اعتبارنا أن هذه الحملات السنوية لملوك بابل وآشور كانت ببساطة حملات بدوية منظمة للغاية وعلى نطاق واسع عند الحديث عن "إمبراطوريات" سامية، حتى لا نبالغ في التفكير الإقليمي. لم يُنشئ الحكام الساميون أي تنظيم دائم للسيادة الإقليمية في المناطق الأجنبية حتى أواخر التاريخ الآشوري. قام السادة الساميون الأوائل، أي كل من سبق آشورناتسيربال ملك آشور، بشن غارات للنهب والاعتداء والتدمير أو تلقي مكافآت الخضوع، وعندما تحققت أهدافهم، عادوا، دون فرض حاميات دائمة من أتباعهم، أو نواب دائمين، أو حتى عبء جزية دائم، لمنع العدو المنكوب من العودة إلى طريقه حتى يأتي دوره.

أن تُشنّ عليه غاراتٌ أخرى. ربما ترك المبتزّ الإمبراطوري سجلاً لوجوده وبراعته على صخورٍ غريبة، ليُشوّه في خطرٍ عندما يُدير ظهره؛ أما بالنسبة لبقية التاريخ، فلم تكن سوى ذكرى شريرة. لذا، فإن "الإمبراطورية" في العصرين البابلي والآشوري المبكرين لم تعني،

من الناحية الإقليمية، سوى منطقة جغرافية يستطيع الإمبراطور، وقد فعل، أن يُشنّ فيها غاراتٍ دون مواجهة معارضةٍ فعّالة.

ومع ذلك، فإنّ هذه الغارات المستمرة على نطاقٍ واسعٍ كانت ستُنتج حتماً بعض ثمار الإمبراطورية، ومن ثمارها، وليس سجلاتها، نعرف على وجه اليقين إلى أي مدى وصلت الإمبراطورية البابلية. وأفضل شاهدٍ على تأثيرها بعيد المدى هو أولاً، العنصر البابلي في الفن الحثي في آسيا الصغرى البعيدة، والذي يُظهر منذ البداية (على حدّ علمنا، أي منذ عام 1500 قبل الميلاد على الأقل) أن الفنانين الأصليين كانوا بالكاد قادرين على تجسيد أي أفكار أصلية دون مساعدة من النماذج السامية؛ وثانيًا، استخدام الطبقات الحاكمة في آسيا الصغرى وسوريا للكتابة واللغة البابلية، بل وحتى الكتب البابلية، في وقت لاحق. إن قيام حكام المدن السورية بكتابة مراسلاتهم الرسمية إلى فراعنة الأسرة الثامنة عشرة بالخط المسماري البابلي (كما تُظهر لنا المحفوظات التي عُثر عليها في تل العمارنة بصعيد مصر قبل عشرين عامًا) قد قدّم دليلًا قاطعًا على النفوذ البابلي المبكر والمستمر منذ زمن طويل، لدرجة أن الاكتشاف الأحدث بأن أمراء كابادوكيا الحيثيين استخدموا نفس الخط واللغة لأغراض دبلوماسية لم يُفاجئنا.

لقد قيل بالفعل إن بابل كانت منطقة غنية ومحظوظة لدرجة أن الإمبراطورية وصلت إليها في وقت أبكر وبقيت فيها لفترة أطول من غيرها من بلدان غرب آسيا التي تمتعت بها. عندما نأتي لإجراء مسحنا لغرب آسيا في عام 400 قبل الميلاد، سنرى إمبراطورًا لا يزال يحكمها من عرشٍ مُقام في حوض دجلة السفلي، وإن لم يكن في بابل فعليًا. ولكن لأسبابٍ مُعينة، لم تصمد الإمبراطورية البابلية طويلًا. كان السكان الأكاديون والسومريون الأصليون مستقرين، مُثقفين، ومُدبّري بيوت، بينما كان تأسيس الإمبراطورية البابلية من عمل مُتطفلين أكثر شراسة. ومع ذلك، كان على هؤلاء أن يخشوا ليس فقط التعاطف المُنخفض من رعاياهم الأصليين، الذين حشدوا قواتهم الكئيبة مرارًا وتكرارًا في "أرض البحر" على رأس الخليج العربي وهاجموا الساميين المُسيطرين من الخلف، ولكن أيضًا غارات الغرباء الجدد؛ لأن بابل مُفتوحةٌ من جميع الجهات. وبناءً على ذلك، فإن ثورات شعوب "البحر والبر"، وجحافل الجحافل الوافدة من شبه الجزيرة العربية، وهبوط محاربي الجبال من تلال عيلام الحدودية على الحافة الجنوبية الشرقية لحوض النهرين التوأمين، وضغط شعوب الأراضي الأكثر ازدهارًا على أعالي نهري دجلة والفرات - كلها مخاطرٌ كانت تتربص ببابل الإمبراطورية وتُضعفها مرارًا وتكرارًا.
ويبدو أن نزولًا كبيرًا من غزاة الحثيين من الشمال حوالي عام 1800 قبل الميلاد قد أنهى الهيمنة الإمبراطورية للأسرة الأولى. بعد تقاعدهم، سقطت بابل في أيدي أهلها الضعفاء، فُرِسَت لسلسلة من الغزوات من جبال الكاشيين وراء عيلام، ومن عيلام نفسها، ومن القوة السامية المتنامية لآشور، التابع السابق لبابل، ومن الإمبراطورية الحثية التي تأسست في كابادوكيا حوالي عام 1500 قبل الميلاد، ومن الموجة الجديدة من فيضان العرب التي تُعرف

بالآراميين، ومن موجة أخرى تلتها، تُسمى عادةً الكلدانيين؛ ولم ينل أحد هذه العناصر الدخيلة استقلالاً كافياً وأمناً في السلطة ليبدأ في رفع شأن بابل مرة أخرى إلى مصاف سيدات الإمبراطورية الأجنبية إلا مع اقتراب نهاية القرن الثاني عشر. في ذلك التاريخ، يبدو أن نبوخذ نصر الأول، الذي عُثر على جزء من سجلاته، قد رسّخ سيادته في جزء من آسيا المتوسطية - مارتو، الأرض الغربية؛ لكن هذه الإمبراطورية اندثرت مرة أخرى مع مؤسسها. بحلول عام 1000 قبل الميلاد، عادت بابل دولة صغيرة منقسمة على نفسها، ومهددة من قِبل منافسين في الشرق والشمال.

القسم 2. إمبراطورية مصر الآسيوية

ومع ذلك، خلال الفترة الطويلة التي انقضت منذ سقوط الأسرة البابلية الأولى، لم تُترك غرب آسيا بلا سيادة. فقد شهدت حدودها ثلاث قوى إمبراطورية أخرى صعودًا وهبوطًا، إحداها كانت مُقدرة للتوسع الثاني لاحقًا. وقد أسست أقدم هذه القوى التي ظهرت على الساحة سيادة إمبراطورية من نوع لن نشهده مجددًا إلا بعد سقوط آسيا في أيدي الإغريق؛ إذ أُسست في آسيا على يد قوة غير آسيوية. في السنوات الأولى من القرن الخامس عشر، اجتاح فرعون الأسرة الثامنة عشرة القوي، تحتمس الثالث، جميع أنحاء سوريا تقريبًا حتى كركميش على نهر الفرات، وأنشأ في الجزء الجنوبي من تلك البلاد تنظيمًا إمبراطوريًا حوّل فتوحاته إلى تبعيات إقليمية لمصر لفترة من الزمن. لدينا دليل كامل على ذلك في أرشيفات خلفاء تحتمس من السلالات، التي عثر عليها فليندرز بيتري في تل العمارنة؛ لأنهم تشمل العديد من التقارير من المسؤولين والأمراء التابعين في فلسطين وفينيقيا.

ومع ذلك، إذا طُبقت كلمة "إمبراطورية" (كما طُبقت بالفعل فيما يتعلق ببابل المبكرة) على نطاق من الغارات المعتادة، حيث يُعترف بالحق الحصري لقوة واحدة في النهب، ضمنيًا أو صريحًا، من قِبل المُهاجمين والشعوب المحيطة، فإن "إمبراطورية" مصر هذه يجب أن تتأخر قرابة مئة عام عن عهد تحتمس الثالث، وأن تُنسب إليها أيضًا حدود أوسع من حدود جنوب سوريا. وقد بدأ الفراعنة غزوات سوريا السامية حتى نهر الفرات في أوائل القرن السادس عشر، كنتيجة لانهيار سلطة "الهكسوس" الساميين في مصر. كانت حروبًا، بعضها انتقامي، وبعضها توسع مصري طبيعي في أرض خصبة مجاورة، والتي انفتحت أخيرًا، ولم تطالب بها أي قوة إمبراطورية أخرى، بينما حكم الكاشيون الضعفاء بابل، وكان استقلال آشور في بداياته. لكن يبدو أن الجيوش المصرية الأولى توجهت إلى سوريا لمجرد النهب والابتزاز. تجنبوا جميع الأماكن المسورة، وعادوا إلى النيل، ولم يتركوا أحدًا ليحكم الأراضي المنهوبة. لم يقم أي فرعون قبل خليفة الملكة حتشبسوت بضم فلسطين وفينيقيا إلى ملكه. كان تحتمس الثالث أول من هدم حصونًا مثل مجدو، واحتل المدن السورية حتى أرواد على الشاطئ وحتى قادش تقريبًا في الداخل - هو الذي، بفضل بعض الحصون، التي ربما حصنتها قوات مصرية

أو نوبية، وفي بعض الحالات مرتزقة من جزر وسواحل البحر الأبيض المتوسط، أبقى الخوف من نفسه في أذهان زعماء القبائل الأصليين، فدفعوا جزية منتظمة لجامعيه، وفرضوا السلام في مصر على جميع العبرانيين والأموريين الذين قد يحاولون شن غارات من الشرق أو الشمال.

ومع ذلك، في أعالي سوريا، يبدو أنه وخلفاؤه لم يحاولوا أكثر مما فعل تحتمس الأول، أي أنهم حققوا تقدمًا مسلحًا دوريًا عبر المناطق الخصبة، واستولوا على مدينة هنا وهناك، لكنهم في الغالب لم يأخذوا سوى الابتزاز. ومن المرجح أنهم لم يدخلوا بعض الأماكن الحصينة، مثل قادش، على الإطلاق. ومع ذلك، كانت غاراتهم متكررة وفعالة بما يكفي لجعل سوريا بأكملها تُعتبر من قِبل الملوك والملوك المحيطين بها منطقة نفوذ مصرية، حيث كان من الأفضل الاعتراف بحقوق فرعون واسترضائه بالهدايا في الوقت المناسب. هكذا فكر وتصرف ملوك ميتاني عبر الفرات، وملوك حاتي وراء طوروس، والإيرانيون البعيدون من سلالة الكاشيين في بابل.

حتى السنوات الأخيرة من حكم خليفة تحتمس الثالث، أمنحتب الثالث، الذي حكم في نهاية القرن الخامس عشر والربع الأول من القرن الرابع عشر، كان السلام المصري محترمًا، وكان ادعاء فرعون بسوريا محترمًا. علاوة على ذلك، يبدو أن تجربة مثيرة للاهتمام قد أُجريت لتشديد قبضة مصر على ولايتها الأجنبية. أُحضر الأمراء السوريون الشباب إلى ضفاف النيل لتلقي التعليم، على أمل أن يصبحوا عند إعادتهم إلى ديارهم نوابًا مخلصين للفرعون: لكن يبدو أن هذه التجربة لم تُسفر عن نتيجة نهائية أفضل من التجارب المماثلة التي جربتها لاحقًا الدول الإمبراطورية، بدءًا من الرومان ووصولًا إلينا.

لم يتقدم المصريون قط وراء هذا المفهوم للتنظيم الإمبراطوري. لم يُفكّروا قط في احتلال عسكري فعال أو إدارة فعالة لسوريا من قِبل جيش مصري أو هيئة مدنية. آثار التأثير الثقافي لمصر على الحضارة السورية في ذلك الوقت (على حد ما كشفت عنه الحفريات) قليلة ومتباعدة؛ ويجب أن نستنتج أن عدد المصريين الأصيلين الذين أقاموا في المقاطعة الآسيوية، أو حتى مروا بها، كان ضئيلًا جدًا. ولأن النيلوتيين بطبيعتهم غير مغامرين، وغير راغبين في الانخراط في التجارة الخارجية، فقد رضوا بترك سوريا في أيدي غيرهم، فحققوا بعض الربح منها. لذلك، لم يكن الأمر يتطلب سوى ظهور قبيلة قوية وواسعة النطاق في المقاطعة نفسها، أو قوة طامعة على حدودها، لإنهاء مثل هذه الإمبراطورية. وقد ظهر كلاهما قبل وفاة أمنحتب - الأموريون في وسط سوريا، وقوة حثية حديثة التوطيد على حدود الشمال. لم تُقابل الأزمة الحتمية بإجراءات جديدة من قِبل ابنه، إخناتون الشهير، وقبل منتصف القرن الرابع عشر، انهارت إمبراطورية مصر الأجنبية إلى مجرد دائرة نفوذ في أقصى جنوب فلسطين، بعد أن دامت، للأفضل أو للأسوأ، أقل من مائتي عام. وقد أُعيد إحياؤها بالفعل على يد ملوك الأسرة

التي تلت، ولكن حظوظها في الاستمرار كانت أقل من ذي قبل. رمسيس الثاني، بتقسيمه لها مع ملك الحيثيين بموجب معاهدة معروفة لنا أحكامها من وثائق باقية من كلا الطرفين، اعترف بعجز مصر عن حسم أي مطالبة متنازع عليها؛ وبحلول نهاية القرن الثالث عشر، سُحبت يد الفرعون من آسيا، بل وحتى من تلك الإقطاعية القديمة لمصر، شبه الجزيرة العربية.

قام بعض ملوك مصر اللاحقين بغارات على سوريا، لكن لم يكن أيٌّ منهم قادرًا، أو راغبًا، في إقامة إمبراطورية دائمة هناك.

القسم 3. إمبراطورية الحيثيين

الإمبراطورية التي صدت المصريين هي الأخيرة قبل تلك التي يجب علينا دراستها

قبل عام 1000 قبل الميلاد. من المعروف منذ زمن طويل أن الحيثيين، الذين يُطلق عليهم المصريون اسم خيتا، والساميون اسم هِث أو حَتي، تطوروا إلى قوة في أقصى غرب آسيا على الأقل في وقت مبكر من القرن الخامس عشر؛ ولكن لم يتضح الطابع الإمبراطوري لقوتهم، والمركز الذي مورست منه، وخلافة الحكام الذين مارسوها، إلا بعد اكتشاف أرشيفاتهم المسمارية عام 1907 في بوغازكوي شمال كابادوكيا. سيُذكر أن غارة حثية عظيمة كسرت النفوذ الإمبراطوري للسلالة البابلية الأولى حوالي عام 1800 قبل الميلاد. وما زال علينا أن نتعلم من أين جاء هؤلاء الغزاة. ولكن بما أن شعبًا حثيًا، منظمًا بما يكفي لغزو وقهر وفرض حامياته، وحضارته الخاصة (والأهم من ذلك بكثير)، على أراضٍ بعيدة، كان متمركزًا في بوغازكوي (من الأفضل استخدام هذا الاسم الحديث حتى نتأكد بشكل أفضل من الاسم القديم) في القرن الخامس عشر، فقد نعتقد بشكل معقول أن شرق آسيا الصغرى كانت موطنًا للحثيين قبل ثلاثة قرون. وبصفتهم قوة إمبراطورية، دخلوا التاريخ مع ملك يُطلق عليه في أرشيفه اسم سوبيليوليوما (لكن السجلات المصرية تُسميه سابارارو)، واختفوا بعد أقل من قرنين من الزمان. غزت الحثيون النصف الشمالي من سوريا، وشمال بلاد ما بين النهرين، وربما آسيا الصغرى بأكملها تقريبًا قبل عام 1350 قبل الميلاد، وأصبحت خاضعة للجزية؛ أُجبرت مصر على الخروج من آسيا؛ واضطرت المستوطنات السامية على ضفتي النهرين التوأمين والقبائل في الصحراء إلى الخضوع أو الدفاع. وبعد قرن ونصف، عاد الحيثيون إلى ظلامٍ أعمق من الذي خرجوا منه. آخر ملوك بوغازكوي، الذي لم يُكشف عن أي جزء من أرشيفاته، هو أرناونتا، الذي حكم في نهاية القرن الثالث عشر. وربما كان له خلفاء قد تُعثر على وثائقهم؛ ولكن من ناحية أخرى، نعلم من السجلات الآشورية، التي يعود تاريخها إلى ما بعد ذلك بقليل، أن شعبًا، ربما كان قريبًا من الحيثيين، وبالتأكيد تأثر بهم، ولكنه كان يُطلق عليه اسم آخر، موشكايا أو موشكي (سنتحدث عن المزيد عنهم لاحقًا)، اجتاح معظم، إن لم يكن كل، مملكة الحيثيين بحلول منتصف القرن الثاني عشر. وبما أن الآثار المُنقَّبة في كلٍّ من بوغازكوي،

عاصمة الحثيين، وكركميش، التابعة الجنوبية الرئيسية لهم، تُظهر علاماتٍ واضحة على الدمار وإعادة الإعمار العام اللاحقة، والتي يجب، على أسسٍ أثرية، أن تُؤرَّخ في عهد أرناونتا في وقتٍ لا يتجاوز بكثير، فيبدو من المُرجَّح أن تاريخ إمبراطورية الحثيين قد انتهى مع ذلك الملك.

سنتناول الآن ما حدث لاحقًا للفصائل الباقية من هذا الشعب الإمبراطوري سابقًا، وللمجتمعات الأخرى القريبة جدًا من حيث الدم أو الحضارة، لدرجة أن الآشوريين، عند حديثهم عمومًا عن الأعداء أو الرعايا الغربيين، استمروا في تسميتهم بالحثيين.

القسم 4. الإمبراطورية الآشورية المبكرة

لا تزال آشور، التي قبل عام 1000 قبل الميلاد، قد غزت مرتين إمبراطورية من نفس النوع تُنسب إلى الأسرة البابلية الأولى، وتراجعت مرتين. تُعدّ التوسعات الآشورية المبكرة، تاريخيًا، الأبرز بين إمبراطوريات غرب آسيا المبكرة، لأنها، على عكس غيرها، كانت تمهيدًا لسيادة إقليمية نهائية، أقرب إلى استباق الأنظمة الإمبراطورية المقدونية والرومانية من أي سابقة أخرى.

تتصدر آشور، لا بابل أو مصر، قائمة الطامحين إلى سيادة العالم.

سيكون هناك الكثير مما يُقال عن التوسع الثالث واللاحق لآشور، لدرجة أن إمبراطورياتها السابقة قد تُغفل لفترة وجيزة. يبدو أن حوض دجلة الأوسط قد استقبل تدفقًا كبيرًا من الساميين من الموجة الكنعانية منذ عهد بابل على الأقل، وبفضل أسباب متعددة - لغياب حضارة محلية سابقة متقدمة كالسومرية، ولبعد المسافة عن مثيري الاضطرابات المغامرين كعيلام وشبه الجزيرة العربية، ولمناخ أكثر انتعاشًا - استقر هؤلاء الساميون بسرعة وشمولية في مجتمع زراعي أكثر من البابليين، وطوروه بنقاء أكبر. كان مركزهم الاجتماعي الأول هو آشور في الجزء الجنوبي من أراضيهم. هناك، بالقرب من بابل، وقعوا حتمًا تحت سيطرة الأخيرة؛ ولكن بعد سقوط سلالة بابل الأولى وما تلاه من تراجع في قوة السامية الجنوبية، تجلى ميل لدى الساميين الشماليين إلى تطوير قوميتهم حول نقاط أكثر مركزية. حلت كالح، الواقعة أعلى النهر، محل آشور في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، لتحل محلها نينوى، الواقعة أبعد قليلاً في اتجاه مجرى النهر؛ وفي النهاية، أصبحت آشور، على الرغم من أنها أخذت اسمها من المدينة الجنوبية، متحدة حول عاصمة شمال بلاد ما بين النهرين لتصبح قوة عظمى.

كانت بابل قادرة على فرض التبعية عليها وإرسال غزاة إمبراطوريين إلى البحر الأبيض المتوسط، وبحيرات أرمينيا الكبرى. كان أول ملوكها الذين بلغوا هذا النوع من المكانة الإمبراطورية هو شلمنصر الأول، الذي يبدو أنه سحق في أوائل القرن الثالث عشر قبل

الميلاد آخر قوة لقوى شمال بلاد ما بين النهرين، ميتاني وخاني، ومهد الطريق إلى الأراضي الغربية. ومع ذلك، سعت القوة الحثي جاهدة لإغلاق الممرات، ولم يتمكن تغلث فلاصر الأول، حوالي عام 1100، من قيادة غزاة آشوريين إلى سوريا، وربما حتى مسافة قصيرة عبر طوروس، إلا بعد وقوع الكارثة وتقاعد من تسببوا في ذلك - الموشكي وحلفائهم. لا نعرف على وجه التحديد سبب انهيار إمبراطوريته معه. ربما كان غزو جديد للساميين العرب، الآراميين الثمانية، الذين هاجمهم عند جبل بشري (تل باشر)، هو السبب. لكن، على أي حال، الحقيقة مؤكدة. أبناء الملك العظيم، الذين وصلوا إلى أرادوس الفينيقية، وهناك أبحروا بفخر على متن السفن مطالبين بالسيادة على البحر الغربي، لم يكونوا سوى تابعين لتابع أبيهم السابق، بابل؛ وحتى نهاية القرن الحادي عشر، لم تنتعش آشور.

القسم 5. القوى الجديدة في عام 1000 قبل الميلاد

وهكذا، في عام 1000 قبل الميلاد، ننظر حولنا نحو الشرق، وبقدر ما تستطيع رؤيتنا اختراق الغيوم، لا نرى قوة مهيمنة واحدة. تبدو الأراضي التي كانت سابقًا خاضعة للدول الكبرى، بابل ومصر وكابادوكيا وآشور، ليست فقط متمتعةً بالحكم الذاتي، بل خاليةً من التدخل، على الرغم من أن الإمبراطوريات الزائلة والحركة الشعبية الكبيرة الأخيرة قد تركتها بحدود سياسية متغيرة، وأحيانًا سلالات حاكمة جديدة. لم تكن أيٌّ من الوحدات السياسية أكبر مساحةً بكثير من غيرها، ولم يكن من السهل في ذلك الوقت التنبؤ بأيٍّ منها، أو إن وُجدت، ستنمو على حساب البقية.

لقد أزعجت حركة الشعوب الكبيرة، التي أُشير إليها للتو، غرب آسيا لقرنين من الزمان. في الشرق، حيث شكّلت مجتمعات بابل وآشور المنظمة والمسلحة جيدًا عقبةً كأداءً أمام المهاجرين الرحل، انحسر التدفق إلى ما وراء جبال الحدود. أما في الغرب، فيبدو أن المد قد تدفق بقوةٍ تفوق ما يمكن لإمبراطورية حتّي في كابادوكيا أن تقاومه، واجتاحت آسيا الصغرى حتى سوريا وبلاد ما بين النهرين. تروي سجلات رمسيس الثالث كيف ظهر حشدٌ كبيرٌ من الشعوب الاتحادية على الحدود الآسيوية لمصر في أوائل القرن الثاني عشر. من بينهم سار رجال "خيتا" أو حتّي، ولكن ليس كقادة. هؤلاء الأعداء الأقوياء وحلفاء سيتي الأول ورمسيس الثاني، قبل أقل من قرن، سقطوا الآن من عرشهم الإمبراطوري ليلحقوا بركب الوافدين الجدد، الذين أذلوهم مؤخرًا في موطنهم الكابادوكي. يُظهر الترتيب الجغرافي الذي أحصى به كتبة رمسيس فتوحاتهم بوضوح الاتجاه الذي جاء منه الفيدراليون والمسار الذي اتبعوه. فقد دمروا على التوالي حاتي (أي كابادوكيا)، وكيدي (أي قيليقيا)، وكركميش، ووسط سوريا. لذا، بدأ تقدمهم المنتصر في شمال آسيا الصغرى، وسلكوا الطرق العظيمة عبر ممرات قيليقيا لينتهي أخيرًا على حدود مصر. لطالما أثارت قائمة هؤلاء الوافدين الجدد اهتمام المؤرخين؛ فبقدر ما بدت أسماؤهم غريبة على المصريين، إلا أنها تبدو مألوفة لنا، وربما تكون محاكاة ساخرة لبعض

الأسماء التي كُتبت بأحرف كبيرة في صفحات التاريخ اللاحق. هؤلاء هم الفلسطينيون، ومجموعة تنحدر على ما يبدو من آسيا الصغرى والجزر، وهم تجاكاراي، وشكلشا، وداناو، وواشاشا، خلفاء البيسيديين وغيرهم من حلفاء الحثيين الأناضوليين في عهد رمسيس الثاني، وقراصنة الليقيين والآخيين والسردينيين الذين اعتادت مصر طردهم من حدودها أحيانًا، وتجنيدهم في خدمتها أحيانًا أخرى. استقر بعض هؤلاء الشعوب، من أي جهة قدموا منها، في ديار جديدة مع انحسار المد. أما الفلسطينيون، إن كانوا بالفعل الفلسطينيين التاريخيين، فقد تقطعت بهم السبل وبقوا على حدود مصر، محتفظين بذكريات معينة عن دولة سابقة كانت لهم في إحدى أراضي المينوان. وبما أن تجاكاراي وواشاشا يبدو أنهما قد انبثقا من أراضٍ تُحسب الآن في أوروبا، فيمكننا أن نعتبر هذه المناسبة الأولى في التاريخ التي اندفع فيها الغرب بقوة نحو الشرق. انظر إلى حوليات آشور، وستعرف من سجلات تغلث فلاصر الأول أن هذه الموجة الشمالية أعقبتها في القرن نفسه موجة ثانية، حملت على قمتها حشدًا جريئًا آخر من آسيا الصغرى. اسمه، موشكي، نسمعه الآن لأول مرة، وسنسمعه مجددًا في المستقبل. وقد عاشت بقايا من هذا العرق حتى وقتٍ طويل من التاريخ، كشعب موشكي الذي تحدث عنه الجغرافيون اليونانيون، وهم شعبٌ غامض على حدود كابادوكيا وأرمينيا. لكن من هم أول موشكي تحديدًا، ومن أين أتوا أصلًا، وإلى أين ذهبوا عندما طُردوا من بلاد ما بين النهرين، لا تزال هذه أسئلةً قيد النقاش. اثنان

تُعرف أعمالٌ عن تاريخهم اللاحق؛ أولًا، أنهم، أو جزءٌ منهم، استوطنوا في كابادوكيا بعد قرنين من تاريخنا، ويبدو أنهم كانوا في وسط وشمال ذلك البلد أكثر من جنوبه؛ ثانيًا، أنه في تلك الحقبة نفسها وما بعدها، كان لهم ملوكٌ باسم ميتا، والذي يُعتقد أنه مطابقٌ لاسم ميداس، المعروف لدى المؤرخين اليونانيين الأوائل بأنه كان يحمله ملوك فريجيا.

ونظرًا لهذه الحقيقة الأخيرة، وُضع الموشكيون على أنهم من أوائل الفريجيين، الذين صعدوا إلى السلطة بعد سقوط الحثيين الكبادوكيين. سيتم النظر في هذا الادعاء لاحقًا، عندما نصل إلى تاريخ أول اتصال معروف بين آشور وأي شعبٍ استقر في غرب آسيا الصغرى. ولكن في غضون ذلك، يجب أن نضع في اعتبارنا أن اسمهم الملكي ميتا لا يعني بالضرورة وجود صلة بين الموشكيين وفريجيا؛ لأن "ميتاني" شمال بلاد ما بين النهرين تعني "رجال ميتا"، فلا بد أن هذا الاسم كان مستوطنًا منذ زمن بعيد في أقصى الشرق.

بشكل عام، ومهما كانت قصتهم اللاحقة، فإن الحقيقة حول الموشكي، الذين نزلوا إلى سوريا في أوائل القرن الثاني عشر واعتزلوا كابادوكيا بعد حوالي خمسين عامًا بعد صراعهم مع آشور، هي على الأرجح أنهم كانوا في الأصل شعبًا جبليًا من شمال أرمينيا أو القوقاز، مختلفين عن الحثيين، وأنهم، بعد أن انحدروا من الشمال الشرقي في حالة بدوية بدائية إلى

موطن ثقافة قديمة امتلكها عرق ضعيف، تبنوا حضارة هذا الأخير عندما غزوها واستقروا فيها.

ولكن ربما لم يستقروا نهائيًا في كابادوكيا إلا بعد أن كبحت ضربة تغلث فلاصر حماسهم للحركة وأضعفت ثقتهم بالنصر. على أي حال، هدأت العواصف الشمالية بحلول عام 1000 قبل الميلاد، تاركةً آسيا الصغرى وأرمينيا وسوريا موزعةً بين أمراء عديدين.

القسم 6. آسيا الصغرى

لو سافر المرء مع الآخيين أو الأيونيين إلى الساحل الغربي للأناضول عام 1000، لتوقع النزول في مستوطنة ناشئة أو بالقرب منها لرجال ليسوا من السكان الأصليين، بل وافدين حديثًا من البحر ويتحدثون اليونانية أو أي لغة إيجية أخرى. لقد غامر هؤلاء الرجال حتى الآن بالاستيلاء على الأراضي الخصبة عند مصبات وديان الأناضول الطويلة، والتي حُرم منها أجدادهم المتجولون بالكامل تقريبًا من قِبل القوات الإقليمية لقوة داخلية ما، يُفترض أنها إمبراطورية الحثيين في كابادوكيا. في العصور القديمة، لم يكن الكريتيون، أو أقرباؤهم من اليونان الميسينية في أواخر العصر الإيجي، قادرين على إقامة سوى بضع مستعمرات صغيرة من التجار على سواحل الأناضول. أما الآن، فقد كان أحفادهم يتعززون بثبات من الغرب بأفراد من عرق آري أصغر سنًا، اختلطوا بسكان الساحل الأصليين، وسيطروا عليهم تدريجيًا أو دفعوهم إلى الداخل. ورغم ضآلة هذا التسرب الأوروبي إلى أطراف القارة المجاورة في تلك اللحظة، فإننا نعلم أنه كان يُدشّن عملية ستؤثر في نهاية المطاف تأثيرًا عميقًا على تاريخ آسيا الوسطى. إن استعمار اليونان الأيوني لأول مرة حوالي عام 1000 قبل الميلاد يُمثل نقطة محورية في التاريخ. لا يمكننا الجزم، في ظل معرفتنا الحالية، بأن أيًا من المدن اليونانية الشهيرة قد بدأت بالفعل في النمو على سواحل الأناضول. هناك أدلة أقوى على وجود ميليتوس المبكر، حيث عثر المنقبون الألمان على الكثير من الفخار من العصر الإيجي المتأخر، مقارنةً بأي عصر آخر. ولكن، على الأقل، يُحتمل أن اليونانيين كانوا قد استقروا بالفعل في مواقع كنيدوس، وتيوس، وسميرنا، وكولوفون، وفوسيا، وكيم، وغيرها الكثير؛ بينما يبدو أن الجزر الكبرى، رودس، وساموس، وخيوس، وميتيليني، قد استقبلت مستوطنين غربيين منذ عدة أجيال، ربما حتى قبل أولى غارات الآخيين على آسيا.

لو توغل الزائر الغربي في الداخل، لكان قد تجنب المناطق الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة، حيث كانت منطقة جبلية، عُرفت لاحقًا باسم كاريا، وليقية، وبسيديا، تحت سيطرة سكان التلال البدائيين الذين استقروا على نمط قبلي منفصل، مثل الألبان المعاصرين. لم يُقهروا قط، وبمجرد أن فتحت لهم الموانئ اليونانية الناشئة على سواحلهم طريقًا إلى العالم الخارجي، أصبحوا معروفين كجنود مرتزقة رائعين، يتبعون تجارة مربحة، إذا كان البيداسو، الذين

يظهرون في سجلات الحملات المصرية للأسرة الثامنة عشرة، من البيسيديين حقًا، فلم تكن جديدة عليهم. ومع ذلك، شمال تلالهم، كانت تقع وديان أوسع تؤدي إلى الهضبة الوسطى؛ وإذا صدق هيرودوت، فقد نشأ هناك مجتمع ملكي منظم، يحكمه "الهيراكليديون" من ساردس. لا نعرف شيئًا تقريبيًا عن ذلك؛ ولكن بما أن شعب ليديا كان غنيًا ومترفًا بعد حوالي ثلاثة قرون في وادي هيرموس، الذي كان في السابق إقطاعية للحثيين، فيجب أن نستنتج أنه كان يتمتع بالأمان منذ عام 1000 قبل الميلاد. من هم هؤلاء الأمراء الهيرقليديون بالضبط؟ الاسم السلالي الذي أطلقه عليهم هيرودوت ربما يوحي بأنهم يتبعون

أصلهم (أي يدينون بالولاء الخاص) لإله الفأس الحربية المزدوجة، الذي شبهه الإغريق بهيراكليس، لكننا نشبهه بساندان، إله طرسوس وأراضي الجنوب الشرقي. سنتحدث أكثر عنه وعن مُعبديه لاحقًا.

وإذا تركنا المناطق الشمالية، غير المعروفة وغير المهمة (كما سنتركها نحن أيضًا)، فسيتجاوز مسافرنا وديان ليديا ليجد أن هاتي الكبادوكيين لم يعودوا سادة الهضبة كما كانوا في السابق. يبدو أنه لم يحل محلهم أحدٌ ذو قوة مُماثلة؛ ولكن هناك ما يدعو للاعتقاد بأن الموشكي، الذين أذلوهم، قد ملأوا الآن بعضًا من مكانهم في آسيا الصغرى. لكن هؤلاء الموشكي تبنوا الحضارة الحاتية حتى ذلك الحين، إما قبل أو منذ حملتهم الكبرى التي صدها تغلث فلاصر الأول ملك آشور، لدرجة أن هيمنتهم لم تُحدث فرقًا يُذكر في الوضع الاجتماعي لآسيا الصغرى. ربما كانت عاصمتهم هي المكان الذي كانت فيه عاصمة الحاتيين - في بوغازكوي؛ ولكن لا يُعرف إلى أي مدى امتدت سيادتهم من ذلك المركز.

نقرأ في جنوب شرق آسيا الصغرى عن عدة إمارات، سواء في وثائق الحاتيين من القرون السابقة أو في السجلات الآشورية اللاحقة؛ وبما أن بعض أسمائها تظهر في كلتا المجموعتين من السجلات، فيمكننا أن ننسبها بأمان إلى نفس المواقع خلال الفترة الوسيطة. من بينها كاس في ليكاونيا المتأخرة، وتابل أو توبال في جنوب شرق كبادوكيا، وخيلاكو، التي تركت اسمها لقيليقيا التاريخية، وكوي في سهل قيليقيا الشرقي الغني والتلال الشمالية الشرقية. في شمال سوريا، نجد مرة أخرى، في كلٍّ من العصور المبكرة والمتأخرة، مملكة كوموك، التي تركت لمنطقتها الاسم التاريخي كوماجيني. جميع هذه الإمارات، كما تُثبت آثارها القديمة، شاركت حضارة حثّية نفسها مع موشكي، ويبدو أنها كانت تُعبد نفس الآلهة الرئيسية، سندان حامل الفأس، أو تيشوب، أو حداد، الذي لاحظنا سيطرته في أقصى الغرب في ليديا، بالإضافة إلى أم عظيمة، راعية النمو السلمي، كما كانت راعية للفتوحات الحربية. لكن ما إذا كان هذا التوحيد الحضاري يعني وجود أي حاكم عام، مثل ملك موشكي، أمرٌ مشكوك فيه للغاية. إن سيادة حثّية في الماضي كافية لتفسير وجود مجتمع كبير من السمات الاجتماعية في عام 1000 قبل الميلاد على جميع أنحاء آسيا الصغرى وشمال سوريا.

القسم 7. سوريا

حان الوقت لمسافرنا للتوجه جنوبًا إلى "أرض الحثيين"، كما أطلق الآشوريون لفترة طويلة على المنطقة الجنوبية من الحضارة الحثية القديمة. لا بد أنه وجد سوريا في حالة من التفكك من أقصاها إلى أقصاها. منذ انسحاب القوى الحثيية القوية من الشمال والمصريين من الجنوب، اجتذبت هذه الأرض شبه الشاغرة، المضطربة، جحافل متتالية من الساميين شبه الرحل من السهوب الشرقية والجنوبية. وبحلول عام 1000 قبل الميلاد، استقر هؤلاء في عدد من المجتمعات الآرامية، كل منها تحت قيادة أميرها. كانوا جميعًا تجارًا كبارًا. استقر أحد هذه المجتمعات في الشمال الغربي، في شمال، حيث نشأ فن، متأثرًا بالثقافة الحثيية القديمة، ولم ينقذه في النهاية إلا آشور السامية من أن يكون حثيًا بحتًا. عاصمتها، التي كانت تقع في سنجرلي الحديثة، وهي من المواقع السورية القليلة التي اكتُشفت علميًا، كما سنلاحظ لاحقًا. جنوبها تقع باتين وبيت أغوسي؛ وجنوبها أيضًا حماة، وأسفلها دمشق - جميعها دول آرامية جديدة، كانت تنتظر فترات من الهدوء لتتطور وفقًا لمساحة أراضيها وسيطرتها على طرق التجارة. كانت دمشق (أوبي أو خوبة) الأكثر حظًا من حيث الخصوبة الطبيعية وسهولة الموقع، حيث كانت تستقبل تدفقًا آراميًا لما لا يقل عن ثلاثمائة عام. كان من المقدر لها أن تتفوق على بقية تلك الدول السامية الجديدة؛ لكنها في ذلك الوقت لم تكن أقوى منها إلا قليلاً. أما بالنسبة للمدن الفينيقية على ساحل لبنان، والتي نعلم من أرشيفات تل العمارنة وغيرها من السجلات المصرية أنها كانت مأهولة منذ زمن طويل بالساميين الكنعانيين، فقد ظهرت من الآن فصاعدًا في ضوء مختلف تمامًا عما أظهرته تقارير حكامها وزوارها المصريين حتى ذلك الحين. لم يقتصر الأمر على تحولهم السريع إلى تجار بحريين بدلاً من مجرد مراكز إقليمية محلية، بل (إذا جاز لنا الاستدلال على ذلك من نقص الآثار المعروفة لفنونهم الراقية أو كتاباتهم قبل عام 1000 قبل الميلاد) كانوا يُحرزون، أو على وشك، تقدمًا مفاجئًا في التطور الاجتماعي.

تجدر الإشارة إلى أن دليلنا، على أن ساميين سوريين آخرين قد بدأوا الكتابة بنصوص خاصة بهم، يبدأ بعد ذلك بوقت قصير في نقاط مختلفة - في شمال، وموآب، والسامرة.

هذا التوسع المفاجئ للفينيقيين إلى قوة بحرية حوالي عام 1000 قبل الميلاد يتطلب تفسيرًا. اعتقد هيرودوت أن الفينيقيين دُفعوا إلى البحر لمجرد عدم كفاية أراضيهم الضيقة المتزايدة لدعم الزيادة الطبيعية في سكانها، وربما كان محقًا جزئيًا، حيث تسارعت أزمة مصيرهم بسبب الضغط الأرميني من الداخل. لكن التقدم في كانت ثقافتهم، التي اتسمت بتطور فنونهم وكتاباتهم، سريعةً وعظيمةً للغاية بحيث لا يمكن أن تكون قد نتجت فقط عن تجارة جديدة مع البحر؛ ولا يمكن أن تكون قد نتجت عن أي تأثير للعناصر الآرامية التي كانت حديثة العهد نسبيًا من السهوب. ولتفسير الوقائع في سوريا، يبدو أننا نحتاج، قبل هذا الوقت بفترة وجيزة،

إلى وصول سكان جدد من منطقة ذات ثقافة أعلى. لذلك، عندما نلاحظ بين الآثار الفينيقية وجنوب سوريا القديمة الكثير مما تم استيراده، وأكثر مما استمد طابعه، من قبرص وحتى من مراكز أبعد لثقافة بحر إيجة في العصر المينوي الأخير، لا يمكننا أن نعتبر اعتقاد المكتشف الكريتي، آرثر إيفانز، بأن الحضارة الفينيقية التاريخية، وخاصةً الكتابة الفينيقية، تدين بوجودها إلى حد كبير للهجرة من أقرب بلدان ما وراء البحار التي امتلكت منذ زمن طويل فنًا متطورًا ونظامًا للكتابة، أمرًا خياليًا. بعد سقوط سلالة كنوس، نعلم أن تشتتًا كبيرًا للكريتيين بدأ، واستمر وتزايد لاحقًا بنزول الآخيين إلى اليونان. وقد قيل بالفعل إن البوليستيين، أو الفلستينيين، الذين تبعوا الجحافل الشمالية الأولى إلى حدود مصر في أوائل القرن الثاني عشر، يُفترض على نحو موثوق أنهم قدموا من منطقة متأثرة بالحضارة المينوية، بينما كان التجاكاراي والواشاشا، اللذان رافقوهم، على الأرجح كريتيين حقيقيين. أقام البوليستيون، كما نعلم، في فلستيا: استقر التجاكاراي في دور على الساحل الفينيقي الجنوبي، حيث وجدهم أونامون، مبعوث رمسيس الحادي عشر. هؤلاء المستوطنون كافٍ تمامًا لتفسير التطور اللاحق لثقافة أعلى في وسط وجنوب سوريا، وربما كانت هناك بعض الهجرات الإضافية من قبرص وغيرها من أراضي بحر إيجة، والتي دفعت مع مرور الوقت مدن فينيقيا، التي وهبتها الطبيعة جيدًا، إلى تطوير ثقافة جديدة بوتيرة سريعة حوالي عام 1000 قبل الميلاد.

القسم 8. فلسطين

إذا كان الفينيقيون يشعرون بدفعة شعوب السهوب، فإن جيرانهم الجنوبيين، الفلسطينيين، الذين عاشوا واغتنموا على رسوم وتجارة الطريق الشمالي الكبير من مصر لمدة قرن ونصف على الأقل، كانوا يشعرون بها أيضًا. خلال قرون مضت، غزت قبائل قوية ومتماسكة من صحاري الجنوب الشرقي، والتي شردت أو استوعبت الكنعانيين منذ زمن بعيد على طول المرتفعات غرب الأردن، وكانت تتجه الآن إلى الاستقرار في وحدة وطنية، معززة بعبادة مشتركة.
خاضت صراعات طويلة متقطعة، تراثها يملأ سفر القضاة العبري - صراعات لم تقتصر على الكنعانيين، بل شملت أيضًا الأموريين في وادي العاصي الأعلى، ولاحقًا الآراميين في الشمال والشرق، وغزوات جديدة للعرب من الجنوب؛ والأهم من ذلك كله، اضطرت إلى التراجع لمدة نصف قرن تقريبًا أمام حركة توسعية للفلسطينيين، حملتهم إلى الجليل وضمنت لهم مكاسب كل امتداد فلسطين من الطريق الشمالي الكبير. ولكن قبل جيل تقريبًا من تاريخنا، كان أقصى شمال هؤلاء "الهبيريين" الجريئين، بقيادة الشيخ شاول المنتخب، قد طرد الفلسطينيين من بيت شان ونقاط مراقبة أخرى في وسط فلسطين، واستعادوا استقلالهم من التلال التي كانوا يسيطرون عليها في عهد فرعون منيفتاه. ومع أن العدو استعاد معظم ما فقده عند وفاة شاول، إلا أنه لم يصمد طويلًا. كان الزعيم الأعظم، داود، الذي ارتقى إلى السلطة بمساعدة الفلسطينيين، ويحظى الآن بدعم القبائل الجنوبية، يوحد العبرانيين الجنوبيين والشماليين في

مجتمع ملكي واحد، وبعد أن طرد سادته القدامى من الشمال مرة أخرى، هدد الجزء الجنوبي من الطريق الشمالي الكبير من العاصمة الجديدة، القدس. علاوة على ذلك، من خلال غزو الأراضي الواقعة شرق الأردن مرارًا وتكرارًا حتى حافة الصحراء، أوقف داود المزيد من الغزوات من شبه الجزيرة العربية. ورغم أن دولة دمشق الآرامية كانت تتفاقم لتتحول إلى خطرٍ مُحدق، إلا أنه كان قد أوقف في الوقت الحاضر ميلها إلى التمدد جنوبًا، وعزز قوته باتفاقيات مع أمير آرامي آخر، أمير حماة، الذي كان يقع على الجانب الشمالي من دمشق، ومع رئيس أقرب مدينة فينيقية، صور. لم تكن الأخيرة بعدُ المدينة الغنية التي ستصبحها في القرن التالي، لكنها كانت قوية بما يكفي للسيطرة على الطريق الساحلي شمال سهول الجليل. لم تكن إسرائيل أكثر أمانًا فحسب، بل لن تحتفظ أبدًا بمكانةٍ ذات أهمية نسبية في سوريا، كما كانت في عصرٍ شهد العديد من الدول الصغيرة والوليدة حوالي عام 1000 قبل الميلاد: وفي العصور اللاحقة، في ظل آشور وتهديد مصر، سينظر اليهود إلى عهد داود وخليفته، لسببٍ ما، على أنه عصرهم الذهبي.

ما كان المسافر ليغامر بدخول شبه الجزيرة العربية؛ ولن نفعل نحن ذلك. كانت آنذاك أرضًا مجهولة تقع خارج التاريخ تمامًا. ليس لدينا أي سجل (إذا كانت تلك السفارة الغامضة

"ملكة سبأ"، التي جاءت لسماع حكمة سليمان، لم تكن لتربطها أي علاقات بدولة من دول الشرق المتحضر وأمير عربي قبل منتصف القرن التاسع. ولعل مجتمع سبأ في جنوب غرب شبه الجزيرة، كما ظن جلاسر، قد بلغ بالفعل المرحلة التمهيدية من الاستيطان القبلي الذي مرت به إسرائيل تحت حكم قضاتها، وكان يتجه الآن نحو الملكية؛ ولعل مسافرنا قد تعلم شيئًا من هذا في سوريا من آخر الآراميين الواصلين. أما نحن، الذين لا نستطيع أن نتعلم شيئًا، فليس أمامنا خيار سوى الذهاب شمالًا معه مرة أخرى، تاركين على يميننا الصحراء السورية التي يجوبها البدويون في نفس الحالة الاجتماعية التي يعيشها أهل عنزة اليوم، دون ولاء لأحد.

يمكننا عبور نهر الفرات عند كركميش أو عند تل بارسيب مقابل مصب نهر ساجور، أو حيث كان ثابساكوس ينظر إلى مصب نهر الخابور.

القسم 9. بلاد ما بين النهرين

لم يبقَ أيٌّ من سجلات آشور لما يقرب من قرن قبل عام 1000 قبل الميلاد، وقليلٌ جدًا منها للقرن الذي تلا ذلك التاريخ. ولا تُعوّض السجلات البابلية نقصنا. ورغم أننا لا نستطيع الجزم بذلك، فمن المرجح أننا على يقين من أنه خلال هذين القرنين، لم يكن للأمراء الآشوريين والبابليين سوى إنجازات قليلة، إن وُجدت، تُوثّق من النوع الذي اعتبروه، وحده تقريبًا، جديرًا بالخلود على الحجر أو الطين - أي الغارات والفتوحات ونهب المدن وابتزاز الأمراء. منذ عهد تغلث فلاسر، لم يُجلس أيٌّ من "ملوك العالم" (الذي كان يُشير به اللقب إلى حاكم بلاد ما بين

النهرين فحسب) على أيٍّ من النهرين التوأمين. لا نعلم ما حدث بالضبط في المنطقة الواسعة بين النهرين وجنوب جبال طوروس منذ رحيل جحافل الموشكي (إن كانوا قد رحلوا جميعاً). يبدو أن الميتانيين، الذين ربما كانوا من أسلافهم، كانوا لا يزالون يسيطرون على الشمال الغربي؛ وربما كان الشمال الشرقي بأكمله أرضاً آشورية. لا شك أن أكراد وأرمن أورارتو كانوا يُغيرون على السهول بلا تمييز من الخريف إلى الربيع، كما كانوا يفعلون دائماً عندما كانت آشور ضعيفة. سنتعلم الكثير عن بلاد ما بين النهرين نفسها عندما تكتمل وتُنشر نتائج الحفريات الألمانية في تل حلف، بالقرب من رأس العين. ربما تكون أكثر الآثار بدائية التي عُثر عليها هناك بقايا من نفوذ خاني (حران)، الذي امتد ليشمل نينوى قبل أن ينمو حكم آشور السامي إلى ملكية ملكية وينتقل شمالاً ليُنشئ آشور الإمبراطورية. ولكن هناك أيضًا طبقات لاحقة من الآثار التي يُفترض أنها تحتوي على أدلة على مسار الأحداث في منتصف بلاد ما بين النهرين خلال الفترات اللاحقة من السيطرة الآشورية والاستقلال المحلي.

كانت آشور، كما ذُكر، ضعيفة بلا شك في ذلك التاريخ، أي أنها كانت محصورة في أراضيها الزراعية الخاصة بالساميين. ويبدو أن هذه الحالة، كلما وُجدت على مر تاريخها، قد دلت على هيمنة كهنوتية، حيث كان للنفوذ البابلي تأثير كبير. وقد ظهر الميل السامي إلى التوحيد الفائق، الذي لوحظ بالفعل، باستمرار بين الساميين الشرقيين (عندما كانوا متحررين نسبيًا من الاستبداد العسكري) في عودة ولائهم الروحي لإله واحد أعلى مُتوّج في بابل، المقر الأصلي للثيوقراطية السامية الشرقية. وحتى عندما كانت هذه المدينة ضعيفة القوة العسكرية، يبدو أن كهنة مردوخ نجحوا في كثير من الأحيان في الحفاظ على سيطرة مسيطرة على شؤون آشور الأقوى. سنرى لاحقًا مدى الهيبة التي اكتسبها أمراء حرب نينوى العظماء حتى بين مواطنيهم باعتراف مردوخ الرسمي بسيادتهم، ومدى خسارتهم بتجاهله وإلحاق الضرر بموطنه. في أوج قوتهم، لم يُمنح الملوك الآشوريون قط الحق الطبيعي في حكم آسيا السامية التي كانت ملكًا لملوك بابل. إذا رغبوا في كسب رضا مردوخ، فعليهم المطالبة به بحد السيف، وعندما يُخفض هذا الحد، يُسحب رضاه دائمًا. من البداية إلى النهاية، اضطروا إلى البقاء طغاة عسكريين، لا يعتمدون على شرعية معترف بها سوى على رماح الفلاحين المجندين، وفي النهاية على المرتزقة. لم تدم أي سلالة طويلة في آشور، حيث غالبًا ما كان يُرفع القادة الشعبيون، حتى أثناء خدمتهم في حملات بعيدة، إلى العرش - تحسبًا للتاريخ الإمبراطوري لروما. يبدو إذن أن مسافرنا كان سيجد أن بابل، لا آشور، هي القوة السامية الشرقية الرائدة في عام 1000 قبل الميلاد؛ ولكنها في الوقت نفسه لم تكن قوة عظمى، إذ لم تكن لها أي سيادة إمبراطورية خارج بلاد ما بين النهرين السفلى. وبما أن سلالة، تاريخها غامض - ما يسمى بملوك الباشيين، الذين كان في عصرهم رجل قوي واحد، نبوخذ نصر الأول - قد انتهت نهايةً مؤسفة حوالي عام 1000 قبل الميلاد، فيمكن للمرء أن يستنتج أن بابل كانت تمر في تلك الحقبة بإحدى تلك

الأزمات السياسية المتكررة التي كانت تحدث عادةً عندما تتآمر المدن السومرية في جنوب "البحر-البر" مع غزاة أجانب ضد العاصمة السامية.

ومع ذلك، يبدو أن الناجين الأقوياء من العنصر الأقدم في السكان، حتى عند نجاحهم، لم يحاولوا إنشاء عواصم جديدة أو إعادة إرساء الوضع ما قبل الساميّ. كانت بابل قد أبعدت جميع المدن القديمة حتى أصبح من غير المرغوب فيه أو المعتقد أنه ممكن إتمام الثورة سوى استبدال سلالة بأخرى على العرش المحبوب لمردوخ. ومع ذلك، لم تكن القوات السومرية هي الوحيدة التي ساهمت في الإطاحة بآخر ملوك سلالة الباشي. فقد كان بدو قبائل سوتي يُغيرون منذ فترة طويلة من الصحاري الغربية إلى أكاد؛ وكان على أول ملك نصّبته شعوب البحر-الأرض المنتصرة أن يطردهم ويُصلح ما لحق بهم من دمار قبل أن يتمكن من الجلوس على عرش كان مهددًا من قِبَل عيلام من الشرق وآشور من الشمال، وكان لا بد أن يسقط بمجرد أن يجد أي منهما قيادة قوية.

الشرق: في عام ٨٠٠ قبل الميلاد

ا مرّ قرنان من الزمان على الشرق، ويبدو للوهلة الأولى وكأنه لم يطرأ أي تغيير جذري على وضعه السياسي أو الاجتماعي. لم تدخله قوة جديدة من الخارج؛ بل نشأت دولة جديدة واحدة ذات أهمية، وهي الفريجية، من الداخل. الشعوب، التي كانت الأكثر أهمية في عام ١٠٠٠، لا تزال الأكثر أهمية في عام ٨٠٠ - الآشوريون، والبابليون، وموشكي كابادوكيا، ورجال قبائل أورارتو، وآراميو دمشق، والفينيقيون التجار على الساحل السوري، والإغريق التجار على الأناضول. بقيت مصر خلف حدودها باستثناء غارة واحدة على فلسطين حوالي عام ٩٢٥ قبل الميلاد، والتي جلب منها شيشنق الليبي كنوز هيكل سليمان لتعزيز روعة آمون. لم تبدأ الجزيرة العربية بعد في أن تكون ذات أهمية. لقد حدث تطور، بالطبع، ولكن على أسس قديمة. تغيرت القيم النسبية للدول: بعضها أصبح أكثر تفوقًا على غيرها مما كان عليه قبل مائتي عام، لكنها تلك التي كان نموها متوقعًا. أين يكمن الفرق الكبير إذن؟ لأنه فرق كبير. لا يحتاج المرء إلى نظرة ثانية لرصد التغيير، ومن ينظر بتدقيق سيرى ليس فقط بعض التغييرات اللاحقة، بل في أكثر من ربعها علامات وتحذيرات من نظام قادم للأشياء لم يكن يُحلم به في عام 1000 قبل الميلاد.

<u>القسم 1. مملكة آشور الوسطى</u>

الجديد الواضح هو وجود قوة مهيمنة. لا يزال هذا التنوع من الدول الصغيرة قائمًا، لكن إحداها تسيطر على معظمها، وهذه الدولة هي آشور. علاوة على ذلك، فإن السيادة الأجنبية التي تتمتع بها هذه الأخيرة منذ ثلاثة أجزاء من قرن هي الأولى من نوعها التي أقامتها قوة آسيوية. كما رأينا، غزت آشور مرتين في عصور سابقة إمبراطورية من النمط السامي البدوي، أي بتصريحٍ بالغزو دون رادع على مساحة واسعة من الأراضي؛ ولكن، على حد علمنا، لم يخطر ببال شلمنصر الأول ولا تغلث فلاصر الأول فكرة إدارة المقاطعات التي غُزيت من قِبل منظمة رسمية دائمة. ولكن في القرن التاسع، عندما كان آشورناصربال وخليفته شلمنصر الثاني، يسيران عامًا بعد عام، مرّا عبر أراضٍ واسعة كانت تحت سيطرة حكام وحاميات، قبل أن يصلا إلى أراضٍ أخرى كانا يأملان في فرض قيود عليها. نجد شلمنصر الثاني، على سبيل المثال، في السنة الثالثة من حكمه، يُحصّن مدينة تل بارسيب على ضفاف نهر الفرات، ويُغيّر اسمها، ويُؤيّدها بحصن، ويُجهّزها بقصر ملكي، ليضمن لنفسه حرية المرور عبر النهر كما يشاء. وقد حرم أخيرًا أهوني من زعيمها الآرامي المحلي، واتخذ من المكان حصنًا آشوريًا. كان الآشوريون قد وسّعوا إمبراطوريتهم الإقليمية إلى هذا الحد، ولكن ليس أبعد من ذلك. بل كان يزحف إلى ما وراء الفرات عامًا بعد عام، حتى إلى فينيقيا

ودمشق وكيليكيا، ولكن لمجرد الغارات، وفرض الابتزاز، والتدمير، مثل أباطرة بابل القدماء أو أسلافه من إمبراطوريات آشور.

كان هناك آنذاك الكثير من غريزة التدمير القديمة في مفهوم شلمنصر للإمبراطورية

ولكن كان هناك أيضًا مبدأ بنّاء يعمل على تعديل هذا المفهوم. لو كان الملك العظيم لا يزال أميرًا بدويًا، مُلزمًا بشن غارات صيفًا بعد صيف، لَفَكَّر، كما فعل محمد بن راشد، أمير جبل شمر العربي في أيامنا هذه، في فكرة توسيع نطاق سيطرته الإقليمية، ليتمكن من الوصول بأمان وسهولة إلى حقول جديدة لشن غارات أوسع. وإذا جاز لنا استخدام صيغ حديثة حول نظام إمبراطوري قديم وغير مكتمل التنفيذ، لوصف سيطرة شلمنصر الثاني بأنها تتكون (بالإضافة إلى جوهرها الآشوري) من دائرة واسعة من الممتلكات الإقليمية الأجنبية التي شملت بابل جنوبًا، وبلاد الرافدين بأكملها غربًا وشمالًا، وكل ما يصل إلى زاغروس شرقًا؛ و"منطقة نفوذ حصرية" تمتد إلى بحيرة فان شمالًا، بينما تمتد غربًا إلى ما وراء نهر الفرات حتى وسط سوريا؛ وأخيرًا، من ترخيص بشن غارات حتى حدود مصر. تجاوزت جميع حملات شلمنصر اللاحقة حدود تلك المنطقة النفوذية. وبعد أن عبر جبال أمانوس سبع مرات، كان في طرسوس في صيفه السادس والعشرين؛ وتعرضت دمشق للهجوم مرارًا وتكرارًا في منتصف حكمه؛ حتى أن ياهو السامريّ دفع ثمن ابتزازه عام 842.

لا بد أن آشور في القرن التاسع بدت، بلا منازع، أقوى قوة عرفها الشرق وأكثرها قمعًا. كان البيت الحاكم ينقل سلطته من الأب إلى الابن في خلافة أسرية متواصلة، لم تكن دائمًا، ونادرًا ما كانت كذلك بعد ذلك. كان بلاطه ثابتًا في قلب آشور، بعيدًا عن آشور التي يسكنها الكهنة، والتي يبدو أنها كانت دائمًا معادية للإمبراطورية ومؤيدة للبابليين؛ لأن آشورناصربال أعاد كالح إلى مكانتها كعاصمة، التي كانت عليها في عهد شلمنصر الأول، لكنها خسرتها في عهد تغلث فلاسر، وهناك احتفظ ملوك الإمبراطورية الوسطى بعرشهم. كانت الجيوش الآشورية لم تكن هذه الدولة حتى ذلك الحين تتألف من جنودٍ أثرياء، ولا يبدو أنها كانت متضخمة بمثل هذه التجنيدات الإقليمية غير المتجانسة التي ستلحق بملوك آسيا العظام في الأيام اللاحقة؛ بل كانت لا تزال تُجنّد من بين فلاحي آشور الأقوياء. كان الملك مستبدًا مطلقًا يُدير استبدادًا عسكريًا فائقًا. من المؤكد أن مثل هذه السلطة لا يمكن إلا أن تدوم. بل ستدوم، في الواقع، لأكثر من قرنين من الزمان. لكنها لم تكن قوية كما بدت. قبل أن ينتهي قرن آشورناتسيربال وشلمنصر الثاني، كانت بذورٌ متأصلةٌ للانحلال الجماعي قد تطورت بسرعة في نظامها. يبدو أن القانون الطبيعي يُقرر أن سلالة العائلة، التي يتمتع أفرادها بكل فرصةٍ ورخصةٍ للانغماس الحسي، ستتدهور جسديًا ونفسيًا بمعدلٍ متزايدٍ باستمرار. لذلك، فإن الإمبراطورية التي تتسم بالاستبداد المطلق لدرجة أن الملك هو مصدر حكمها الرئيسي، تزداد ضعفًا مع انتقالها من الأب إلى الابن. وفرصتها الوحيدة للحفاظ على بعض قوتها الأصلية هي تطوير بيروقراطية، إذا

استلهمت أفكار وأساليب أفراد السلالة السابقين، فقد تستمر في تحقيقها في نظام إداري متبلور. لم تُعر مملكة آشور الوسطى أي اهتمام لهذه الفرصة. هناك أدلة على تفويض ملوكها العظام للسلطة العسكرية إلى هيئة أركان، وعلى تنظيم السيطرة العسكرية في المقاطعات، ولكن لا يوجد أي دليل على تفويض السلطة المدنية بما قد يُعزز البيروقراطية. لذلك، فإن تركيز السلطة في يد واحدة، والذي كان في البداية عنصر قوة، أصبح يُولد ضعفًا متزايدًا مع خلافة أحد أفراد السلالة لآخر. مرة أخرى، كانت الجيوش الآشورية التي لا تُقاوَم، والتي كانت تُقاد للخارج صيفًا بعد صيف، مُجهزةً لأجيالٍ بفلاحين أقوياء مُنتَقين من حقول حوض دجلة الأوسط، وخاصةً أولئك الذين يعيشون على الضفة اليسرى. أما الرزية السنوية، فهي عادة بدوية، خاصة بمجتمع شبه بدوي لا يزرع إلا القليل من الماشية، ويمكنه أن يترك الأعمال الزراعية، وكذلك الرعوية، التي لا بد من القيام بها في الصيف لكبار السن والشباب والنساء، دون خسارة فادحة. أما السكان العاملون المستقرون الذين لديهم أراضٍ عميقة لزراعتها، ومحصول صيفي لزراعته، ونظام ري لصيانته، فهم في حالة مختلفة تمامًا. إن ملوك آشور، بدعوتهم فلاحيهم الزراعيين، ربيعًا بعد ربيع، لاستئناف حياة البدو الرحل المقاتلين، لم يستنفدوا مصادر ثروتهم واستقرارهم فحسب، بل ولّدوا أيضًا استياءً عميقًا. مع مرور القرنين التاليين، سيُسمع المزيد عن الاستنزاف والبؤس في الأراضي الآشورية. فقبل عام 800، شهدنا تمرد منطقة أربيل الزراعية على أبناء شلمنصر، وبعد استرضائها بصعوبة، عادت للثورة على أدادنيراري الثالث في ثورة لا تزال قائمة حتى نهاية القرن.

وأخيرًا، كان من المحتم أن تُنشئ هذه الملكية المتشددة، التي كانت حياتها حربًا، أعداءً عنيدين من الداخل والخارج. ومن بين هؤلاء الكهنة، على ما يبدو، الذين كان نفوذهم بالغ الأهمية في آشور. وإذ تذكروا من منح أول ملك مستقل لآشور، استاءوا من سقوط مدينتهم، المقر المختار للسلالات السابقة، والتي أعادها تغلث فلاصر العظيم إلى الصدارة، إلى المرتبة الثانية بشكل دائم. وهكذا نجد آشور ينضم إلى رجال أربيل في التمردين المذكورين آنفًا، ويبدو أنه كان دائمًا على استعداد للترحيب بمحاولات الساميين البابليين لاستعادة هيمنتهم القديمة على جنوب آشور.

القسم 2. أورارتو

كما هو متوقع من الظروف الجغرافية، كان أخطر أعداء آشور الأجانب وأكثرهم إصرارًا هم سكان التلال الشرسين في الشمال. في الشرق، كانت العواصف تلوح في الأفق خلف الجبال، لكنها لم تكن مستعدة للانفجار بعد. أما في الجنوب والغرب، فكانت تقع إما مناطق مستقرة ذات حضارة قديمة غير مستعدة للقتال، أو مناطق متناثرة للبدو الرحل متناثرة على نطاق واسع وغير منظمة بما يكفي لتشكل خطرًا جسيمًا. لكن الشمال كان في وضع مختلف. لطالما آوت الوديان البرية، التي تنحدر منها روافد الضفة اليسرى لنهر دجلة الأعلى، عشائرَ مُتقاتلة

شرسة، طامعة في مراعي الشتاء ومناخ هضاب شمال بلاد ما بين النهرين، وقد حرصت قوى بلاد ما بين النهرين الواحدة تلو الأخرى، حتى يومنا هذا، على وضع تدابير لكبح جماحها. وبما أن نقطة الضعف الرئيسية لهذه القبائل تكمن في انعدام الوحدة الذي تُشجعه طبيعة بلادهم المُنقسمة، فلا بد أن ذلك قد أثار قلقًا بالغًا لدى الآشوريين من أن تبدأ مملكة أورارتو، أو كما يُطلق عليها أهلها، الخالدية، في أوائل القرن التاسع، في اكتساب السلطة على المجتمعات المحيطة ببحيرة فان ومنابع الوديان التي تنحدر إلى الأراضي الآشورية. قاد كلٌّ من آشورناصربال وشلمنصر غاراتٍ تلو الأخرى على الجبال الشمالية على أمل إضعافها.

رُبُطٌ قد تستمدُّ مملكةُ فان قوتها من اندماجها. زحف كلا الملكين أكثر من مرة إلى جوار بحيرة أرومية، وضرب شلمنصر قلبَ أورارتو نفسها ثلاث أو أربع مرات؛ ولكن بنجاحٍ غير حاسم. استمرت دولة فان في الازدهار، وبنى ملوكها - الذين تحمل أسماؤهم نطقًا أوروبيًا أكثر منه آسيويًا - لوتيبريس، وساردوريس، ومينواس، وأرجيستيس، وروساس - لأنفسهم حصونًا حصينة لا تزال قائمةً حتى يومنا هذا حول بحيرة فان، واستعاروا خطًا من أعدائهم الجنوبيين لنقش الصخور التي تحمل سجلات الحروب الناجحة. ويمتد أحد هذه النقوش غربًا حتى الضفة اليسرى لنهر الفرات مقابل ملطية. بحلول عام 800 قبل الميلاد، ورغم جهود أبناء شلمنصر لمواصلة سياسة أبيهم في نقل الحرب إلى بلاد العدو، نجح الملك الفاني في استبدال النفوذ الآشوري بقانون الخالدية في حوض نهر دجلة وفي بلاد ما بين النهرين العليا - أراضي "نايري" التي وضعها الكتبة الآشوريون؛ وسيواصل خلفاؤه غزواتهم في السهول خلال العصر القادم.

القسم 3. الميديون

على الرغم من التهديد الذي شكّلته قوة أورارتو في نهاية القرن التاسع لسلالة آشورية ضعيفة، إلا أن هناك مجموعتين عرقيتين أخريين، وصلتا مؤخرًا إلى أفقها، واللتين ستثبتان في النهاية أنهما أكثر خطورة. تقع إحداهما على طول الحدود الشمالية الشرقية على المنحدرات البعيدة لجبال زاغروس وعلى الهضبة الواقعة خلفها. يبدو أنهم كانوا شعبًا مركبًا يمر بعملية تكوين ونمو بطيئة. ويبدو أن أحد عناصرهم كان من نفس فصيلة سكانية رعوية قوية كانت تنتشر آنذاك في سهوب جنوب روسيا وغرب آسيا الوسطى، وقد عُرفوا بشكل غامض لدى الإغريق الأوائل باسم الكيميريين، وبدرجة أقل لدى أحفادهم باسم السكيثيين. وسرعان ما أصبح اسمهم مألوفًا في الشرق. وقد استقر فرع من هذه القبائل عبر القوقاز في أذربيجان الحديثة، حيث استقبلت لفترة طويلة تعزيزات تدريجية من المهاجرين الشرقيين، المنتمين إلى ما يُسمى المجموعة الإيرانية الآرية. وتسلل هؤلاء الإيرانيون عبر الممر بين سلسلة جبال قزوين والصحراء المالحة، التي تحرسها طهران الآن، وانتشروا في شمال غرب بلاد فارس وجنوبًا إلى البلاد الغنية بالمياه على الحافة الغربية للهضبة، المطلة على الأراضي المنخفضة لحوض

نهر دجلة. يبدو أن جزءًا منهم، تحت اسم بارسوا، قد استقر شمالًا حتى الشواطئ الغربية لبحيرة أرومية، على حافة مملكة أرارات؛ بينما استقر جزء آخر جنوبًا حتى حدود عيلام. ويبدو أن المهاجرين اندمجوا بين هاتين النقطتين المتطرفتين مع السكيثيين المستقرين، وبحكم تفوقهم العرقي أصبحوا شركاء رئيسيين في هذا التحالف. وفي فترة زمنية غير محددة - ربما قبل عام 800 قبل الميلاد - برز من العنصر الإيراني فرد، هو زرادشت، الذي حوّل شعبه من عبادة العناصر إلى إيمان روحي بالألوهية الشخصية؛ وبهذا الإصلاح للعبادة، رفع مكانتها الاجتماعية ومنحها تماسكًا سياسيًا. بدأ الشرق يعرف ويخشى من هذا المزيج المعروف باسم ماندا، ومنذ عهد شلمنصر الثاني، اضطر الملوك الآشوريون إلى إيلاء اهتمام متزايد لبلاد ماندا، فقاموا بغزوها ونهبها وفرض الجزية عليها، لكنهم في الوقت نفسه كانوا يُظهرون إدراكهم المتزايد لخطر داهم كامن وراء زاغروس، خطر الميديين.

القسم 4. الكلدانيون

أما الخطر الآخر، وهو الأكثر إلحاحًا، فقد هدد آشور من الجنوب. ومرة أخرى، بعثت هجرة سامية، نميزها بالكلدانية عن موجات سامية سابقة، الكنعانية والآرامية، حيوية جديدة في الشعب البابلي. وقد جاءت، مثل الموجات السابقة، من شبه الجزيرة العربية، التي كانت، لأسباب معينة، مصدرًا رئيسيًا للاضطرابات العرقية في غرب آسيا على مر العصور. شبه الجزيرة الجنوبية الكبرى، في معظمها، عبارة عن سهوب مرتفعة تتمتع بهواء نقيّ فريد وتربة نقية. وبالتالي، تُنتج سكانًا أصحاء، حيث يكون معدل المواليد، مقارنةً بمعدل الوفيات، مرتفعًا بشكل غير عادي؛ ولكن بما أن الظروف السطحية والمناخية الخاصة بها تمنع نموّ مواردها الغذائية الداخلية إلى ما يتجاوز نقطة وصلت إليها منذ زمن بعيد، فإنّ فائض السكان الذي يتراكم بسرعة داخلها يُجبر من وقت لآخر على البحث عن قوته في مكان آخر.

ونظرًا لصعوبة الطرق المؤدية إلى العالم الخارجي (ناهيك عن يقين المعارضة في الطرف الآخر)، نادرًا ما ينطلق المهاجرون الراغبون في الهجرة في مجموعات صغيرة، بل يتنقلون بقلق داخل حدودهم حتى يكبروا إلى حشود، والتي تُجبرهم المجاعة والعداء في الوطن في النهاية على مغادرة شبه الجزيرة العربية. يصعب القبض على العرب المتنقلين، كرمالهم التي هبت عليهم، ويهجمون على أقرب المناطق الخصبة، لينهبوا ويقاتلوا، ثم يستقروا في النهاية. وهكذا في العصور الحديثة نسبيًا، انتقل رجال قبائل شمر إلى سوريا وبلاد الرافدين، وهكذا في العصور القديمة انتقلوا إلى سيطر الكنعانيون والآراميون والكلدانيون. ونجد أن الأخيرين كانوا راسخين بالفعل بحلول عام 900 قبل الميلاد، ليس فقط في "أرض البحر" على رأس الخليج العربي، بل أيضًا بين النهرين. ويبدو أن ملوك بابل، الذين عارضوا آشورناتسيربال وشلمنصر الثاني، كانوا من أصل كلداني؛ ورغم أن خلفاءهم، حتى عام 800 قبل الميلاد، اعترفوا بسيادة آشور، إلا أنهم سعوا جاهدين لرفضها، باحثين عن مساعدة عيلام أو قبائل

الصحراء الغربية. إلا أن العصر لم يكن ناضجًا تمامًا. وانتهى القرن بإعادة تأكيد أدادنيراري للسلطة الآشورية في بابل نفسها.

القسم 5. التوسع السوري لآشور

كانت هذه هي المخاطر التي، كما نعلم الآن، تلوح في أفق الساميين الشماليين عام 800 قبل الميلاد. لكنها لم تكن قد أصبحت واضحة للعالم، الذي بدت آشور في نظره قوة لا تُقاوم، تتوسع أكثر فأكثر. وفّر الغرب المجال الأكثر جاذبية لتوسعها. هناك كانت تقع بقايا إمبراطورية حثّ، تنعم بثمار حضارة حثّ؛ وكانت هناك الدول الآرامية الغنية، وموانئ فينيقية أكثر ثراءً. هناك كانت الحياة الحضرية متطورة، حيث كانت كل مدينة قائمة بذاتها، بما يكفي... 1 أجرؤ على الالتزام طوال الوقت بالتعريف القديم لقوة ماندا، التي أطاحت في النهاية بآشور، مع الميديين، على الرغم من أن السلطات العليا تفترض اليوم أن هؤلاء الأخيرين لم يلعبوا أي دور في ذلك الانقلاب، ولكن تم إدخالهم في هذا الفصل من التاريخ من خلال تعريف خاطئ قام به اليونانيون. لا أصدق أن السلطات اليونانية والعبرية، المتأخرة جدًا، وقعت في مثل هذا الخطأ.

18

في أراضيها، وتعيش تقريبًا على تجارة القوافل التي كانت تمر بالضرورة تحت أسوارها أو بالقرب منها بين مصر من جهة وبلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى من جهة أخرى.

لم تكن آشور يومًا ساحةً أنسب للأعمال العدائية، أو ساحةً أسهل استهدافًا دون خوف من الانتقام، وإدراكًا منها لهذا، شرعت آشور، منذ عهد آشورناتسيربال فصاعدًا، في استنزاف سوريا ونهبها بشكل منهجي. كان من عادات شلمنصر الثاني السنوية تقريبًا أن يزحف إلى وسط نهر الفرات، وينقل جيشه عبره، ويفرض ابتزازًا على كركميش ومدن شمال سوريا الأخرى حتى كيليكيا من جهة ودمشق من جهة أخرى. بعد ذلك، كان يُرسل مبعوثين للمطالبة بفدية من المدن الفينيقية، التي كانت تدفعها على مضض أو تمتنع عنها بتهور وفقًا لمقدار إكراهه. منذ آخر مرة نظرنا فيها إلى الدول الآرامية، أكدت دمشق بلا شك السيادة التي يجب أن تضمنها لها مزاياها الطبيعية دائمًا عندما لا تكون سوريا تحت السيطرة الأجنبية. يبدو أن سلالة بنهدد المقاتلة، التي تأسست قبل أكثر من قرن من عهد شلمنصر، قد بسطت نفوذها الآن في جميع أنحاء سوريا من الشرق إلى الغرب وصولًا إلى أراضي حماة في الشمال والعبرانيين في الجنوب. لم يجرؤ آشورناصربال قط على فعل أكثر من استدعاء سيد هذه الدولة الكبيرة والثرية على المدى البعيد للمساهمة في خزائنه؛ لكن هذا الالتزام الضريبي، إن وُجد، كان يُتجاهل باستمرار، ووجد شلمنصر الثاني أنه يجب عليه اتخاذ تدابير أكثر جرأة أو الاكتفاء برؤية فرقه الغازية تقتصر على الشمال المُنهك أصلاً. اختار المسار الجريء، وهاجم

حماة، أقصى التبعية الشمالية لدمشق، في صيفه السابع. انتصارٌ بارز، تحقق في كركر على نهر العاصي الأوسط، على جيش ضمّ وحدات من معظم الدول السامية الجنوبية - إحداها، على سبيل المثال، جاءت من إسرائيل، حيث كان آخاب ملكًا آنذاك - فتح الطريق نحو العاصمة الآرامية؛ ولكن لم يهاجم الملك العظيم دمشق فعليًا إلا بعد اثني عشر عامًا.

لكنه فشل في تتويج نجاحاته بالاستيلاء عليها، ومع استعادة قوتها بتولي سلالة جديدة، أسسها حزائيل، القائد العسكري، عام 842، استمرت دمشق في منع الآشوريين من التمتع الكامل بالأراضي الجنوبية لقرن آخر. مع ذلك، ورغم أن شلمنصر وخلفائه من السلالات وصولاً إلى أدادنراري الثالث لم يتمكنوا من دخول فلسطين، إلا أن شبح الإمبراطورية الآشورية بدأ يتسلل إلى إسرائيل.

وقد ساهمت الخلافات الداخلية في إسرائيل، وخوفها وحسدها على دمشق، في جعل الكارثة النهائية حتمية. في الجيل الثاني بعد داود، أعاد التنافر الجذري بين القبائل العبرية الشمالية والجنوبية، التي بدت تحت قبضته القوية وقبضة ابنه أمة واحدة، تأكيد نفوذها المتفكك. وبينما ليس من المؤكد ما إذا كانت القبائل الاثنتا عشرة جميعها من عرق واحد، فمن المؤكد تمامًا أن القبائل الشمالية قد تلوثت إلى حد كبير بالدم الآرامي وتأثرت بتأثيرات منتصف سورية، وهو ما عززته بلا شك العلاقات التي أقامها وحافظ عليها داود وسليمان مع حماة وفينيقيا، وخاصة في أراضي آشير ودان. لم تكن هذه القبائل، وبعض الشماليين الآخرين، على وفاق مع القبائل الجنوبية قط.

في مسألة بالغة الأهمية للمجتمعات السامية، ألا وهي المُثُل والممارسات الدينية. كان على التوحيد المُجسّد، الذي جلبته القبائل الجنوبية من شبه الجزيرة العربية، أن يُواجه في الجليل تعدد الآلهة المُجسّد، أي الميل إلى تجسيد صفات الألوهية في أشكال حيوانية. وتوجد أدلة وافرة على مثل هذه المعتقدات في التراث اليهودي، حتى خلال الترحال الذي سبق فلسطين. تجلّت تجسيدات الزواحف والأبقار في قصة الخروج، وعلى الرغم من الجهود التبشيرية المُتحمسة لسلسلة من الأنبياء، واعتناق الكثيرين، حتى من بين رجال القبائل الشمالية، للعقيدة الأكثر روحانية، فقد اكتسبت هذه الطوائف قوة في جوار الآراميين والفينيقيين المُتجانس، حتى أدت إلى الانفصال السياسي بين الشمال والجنوب بمجرد انتهاء عهد سليمان الطويل. بعد ذلك، وحتى كارثة القبائل الشمالية، لم تعد هناك أمة عبرية موحدة. المملكة الشمالية، التي حاصرتها دمشق وأجبرتها على المشاركة في نزاعاتها رغماً عنها، بحثت عن مساعدة خارجية. سلالة عمري، التي بنت لنفسها عاصمة وقصراً (اكتُشف مؤخراً) على تل السامرة، لتأمين السيطرة على الطريق الشمالي الكبير، اعتمدت بشكل رئيسي على صور. أما السلالة التالية، سلالة ياهو، التي تمردت على ابن عمري وملكته الفينيقية، فقد توددت إلى آشور، وشجعتها على الضغط بقوة أكبر على دمشق. كانت سياسة انتحارية؛ إذ يكمن في استمرار وجود دولة آرامية

قوية شمالها أمل إسرائيل الوحيد في طول العمر. كان ينبغي ليربعام الثاني ونبيّه يونان أن يدركا أن يوم الحساب سيأتي سريعًا على السامرة بعد أن صفّت آشور حساباتها مع دمشق.

إلى حد ما، ولكن للأسف ليس بكل التفاصيل، يمكننا تتبع توسّع السيادة الإقليمية الآشورية في الغرب في السجلات الملكية. أول مؤشر واضح على توسّعها يُقدّمه إعلانٌ عن احتلال دائم لموقع على الضفة الشرقية لنهر الفرات، كقاعدة لعبور النهر. كان هذا الموقع تل بارسيب، الواقع مقابل مصب نهر الساجور، وهو أدنى روافد سورية، وكان سابقًا عاصمةً لإمارة آرامية. ويثبت أن احتلال شلمنصر الثاني لها في السنة الثالثة من حكمه كان من المفترض أن يكون دائمًا، وذلك من خلال تغيير اسمها وتحولها إلى مقرّ ملكي آشوري. عُثر مؤخرًا بالقرب من تل أحمر، القرية الحديثة التي خلفت المدينة الملكية، على أسدين بازلتيين، نصبهما الملك العظيم على جانبي بوابته الرافدينية، ونُقش عليهما نصوص تذكارية. وقد مثّل هذا الإجراء ضمًا نهائيًا لأراضي بلاد ما بين النهرين، التي كانت تحت الحكم الآرامي لما لا يقل عن قرن ونصف. ولا نعلم على وجه اليقين متى تأسست هذه الحكومة هناك؛ لكن انهيار سلطة تغلث فلاسر حوالي عام 1100 قبل الميلاد كاد أن يتبع الغزو الآرامي الرئيسي من الجنوب، مما يُرجّح أن هذا الغزو كان إلى حد كبير سببًا في ذلك الانهيار، وأن إحدى نتائجه المباشرة كانت تشكيل الدول الآرامية شرق الفرات. وكانت أقوى هذه الدول، وآخرها التي استسلمت لآشور، بيت أديني، المقاطعة الواقعة غرب حران، والتي كانت تل بارسيب مدينتها الرئيسية. تميزت المرحلة التالية من التوسع الآشوري باحتلال مماثل لموقع على الجانب السوري من نهر الفرات، لتغطية عمليات الإنزال ولجمع الجزية. هنا كانت تقع بيترو، التي كانت سابقًا بلدة حاتي، وربما فيتور المذكورة في الكتاب المقدس، بجوار نهر الساجور في موقع لم يُحدد بعد، ولكنه على الأرجح بالقرب من مصب النهر. أُطلق عليها اسم آشوري في السنة السادسة من حكم شلمنصر، واستُخدمت بعد ذلك كقاعدة لجميع عملياته في سوريا. كما ساهمت في إخفاء وإرهاب مدينة كركميش الأكبر والأكثر ثراءً، الواقعة على بُعد أميال قليلة شمالًا، والتي ستظل لفترة طويلة خالية من الاحتلال الآشوري الدائم، على الرغم من تعرضها للابتزاز في كل غارة غربية شنها الملك العظيم.

مع هذا التقدم الأخير غربًا لممتلكاته الإقليمية الدائمة، يبدو أن شلمنصر قد ارتضى. كان متأكدًا من عبور نهر الفرات، وقد وطد أقدامه على ضفاف سورية. لكن لا يمكننا الجزم بذلك؛ فرغم أن سجلاته المعروفة لا تذكر إعادة تسمية أي مدن سورية أخرى، إلا أن العديد منها ربما أُعيدت تسميته دون أن يُذكر في السجلات، وربما احتلت حاميات آشورية قائمة مدنًا أخرى دون أن تُطلق عليها أسماء جديدة. ومهما يكن، يمكننا أن نتتبع، عامًا بعد عام، التقدم المطرد لأرتال الغارات الآشورية إلى داخل سورية. في عام 854، استقر أبعد قاعدة عمليات لشلمنصر في خلمان (حلب)، ومنها سار إلى نهر العاصي ليخوض معركة كركر، بالقرب من

موقع أفاميا لاحقًا. بعد خمس سنوات، انقضّ من غارة قيليقية، ودخل حماة. ومرت ست سنوات أخرى قبل أن يحقق المزيد من التقدم جنوبًا، على الرغم من أنه غزا سورية مرة أخرى.

سارت الأمور على ما يرام مرة واحدة على الأقل خلال هذه الفترة. في عام 842، بعد أن سلك طريقًا جديدًا على طول الساحل، انعطف إلى الداخل من بيروت، وعبر لبنان وشرق لبنان، ونجح في الوصول إلى واحة دمشق، بل وفي شن غارات على مسافة ما باتجاه حوران؛ لكنه لم يستولِ على المدينة المسورة نفسها (ربما، كأمير البدوي الذي كان عليه، لم يحاول الاستيلاء عليها). ويبدو أنه كرر زيارته بعد ثلاث وعشرين عامًا، لكنه لم يتجاوزها أبدًا. ومن المؤكد أنه لم يضمن لنفسه فينيقيا، أو سورية الجوفاء، أو دمشق، ناهيك عن فلسطين، من خلال أي تنظيم دائم. في الواقع، كما قيل، ليس لدينا ما يبرر التأكيد على أن آشور في عصره ضمت بشكل نهائي أي جزء من سوريا إلى إمبراطوريتها الإقليمية باستثناء نقطة مراقبة واحدة أقيمت في بيترو على نهر الساجور. ولا يمكن أن يُنسب الفضل في ذلك إلى خلفاء شلمنصر المباشرين؛ ولكن يجب أن يُفهم أنه بحلول نهاية القرن، كان أدادنيراري قد وسّع نطاق نفوذ آشور (بخلاف سيطرتها الإقليمية) جنوبًا بعض الشيء ليشمل ليس فقط فينيقيا، بل أيضًا شمال فلسطين وفلسطين مع المناطق الصالحة للزراعة شرق الأردن.

القسم 6. كيليكيا

عندما عبر إمبراطور آشوري نهر الفرات واتخذ مقرًا له في بيترو لاستقبال خضوع الزعماء الغربيين وجمع قواته لشن غارات على أراضي أي شخص قد يتباطأ في الامتثال، كان أقرب بكثير إلى حدود آسيا الصغرى من حدود فينيقيا أو مملكة دمشق. ومع ذلك، في ثلاث مناسبات من أصل أربع، اكتفى أمراء مملكة آشور الوسطى بغزو أراضي وسط سورية التي نُهبت مرارًا، وفي المرة الرابعة، إذا اتجهوا شمالًا، لم يتجاوزوا كيليكيا الشرقية، أي ما هو أبعد قليلًا من الأفق الذي قد يرونه في يوم صافٍ من أي أرض مرتفعة بالقرب من بيترو. ومع ذلك، على الجانب الآخر من الجدار المُغطى بالثلوج والذي يحدّ المنظر الشمالي، كانت تقع ممالك مرغوبة، وهي خانيغالبات وعاصمتها ميليد، التي تضم المنطقة الخصبة التي ستصبح لاحقًا جزءًا من كاتونيا؛ وتابل إلى الغرب منها، الممتدة على بقية كاتونيا وجنوب كابادوكيا؛ وكاس، التي تضم تيانيتس وسهل ليكاونيا العميق. فلماذا إذن امتنع هؤلاء اللصوص الإمبراطوريون في القرن التاسع عن الاستيلاء على هذه الفريسة المغرية لفترة طويلة؟ لا شك في ذلك، لأنهم وجيوشهم، التي لم تُجنّد بعد من شعوب أخرى غير الساميين في آشور، على حد علمنا، كانوا عربًا بالأصل، رجال الجنوب، الذين شكّلت لهم الهضبة المرتفعة الواقعة وراء جبال طوروس رادعًا كما كانت لجميع الساميين منذ ذلك الحين. كانت موجات الغزو العربي، التي تتصاعد مرارًا وتكرارًا حتى سفح جبال طوروس، تخترق أحيانًا الممرات وتتدفق في تيارات واحدة

بعيدًا إلى آسيا الصغرى، لكنها كانت تنحسر دائمًا بنفس السرعة. يمكن مقارنة الاشمئزاز الذي شعر به الآشوريون تجاه آسيا الصغرى بالسرعة التي أظهرها خلفاؤهم الإيرانيون في غزو شبه الجزيرة، ويمكن توضيح ذلك من خلال التاريخ اللاحق. لم يُرسِ المسلمون موطئ قدم دائم في آسيا الصغرى، وتركوا غزوها النهائي للأتراك في الشمال. القوة العربية قصيرة العمر لمحمد علي، التي ثارت على الأتراك قبل نحو ثمانين عامًا، تقدمت نحو الهضبة لتتراجع على الفور وتتخلف عن جبال طوروس. يُمثل الخط الفاصل الحالي بين الشعوب التي تتحدث العربية والتركية على التوالي الحدّ التاريخي للسامية. فبمجرد أن يصل مستوى سطح الأرض في شمال سوريا إلى متوسط ارتفاع 2500 قدم، يتجمد اللسان العربي.

ولذلك، لن نجد جيوشًا آشورية تبتعد أو تبقى طويلًا وراء جبال طوروس. لكننا سنجدها تتجه باستمرار، وبشكل طبيعي، إلى قيليقية، على الرغم من جدار أمانوس الجبلي العالي الذي يفصلها عن سوريا. قيليقية - على الأقل كل ذلك الجزء منها الذي اعتاد الآشوريون على غزوه - منخفضة، وتواجه الجنوب، وتحميها الجبال العالية من برد الشمال والشرق. تتمتع كيليكيا بمناخ أكثر دفئًا واعتدالاً من أي جزء من سوريا، باستثناء الحزام الساحلي، ولطالما ارتبطت اجتماعيًا بأراضي الجنوب أكثر من ارتباطها بكاملها الجغرافي، آسيا الصغرى. كان العنصر السامي سائدًا بين سكان السهل، وخاصة في مدينته الرئيسية، طرسوس، طوال العصور القديمة. ارتبطت كيليكيا ارتباطًا وثيقًا بسوريا لدرجة أن أمير كوي (الجزء الشرقي منها) انضم إلى أمراء حماة ودمشق وحلفائهم من جنوب سوريا في ذلك التحالف للدفاع المشترك ضد العدوان الآشوري، والذي كسره شلمنصر في كركر عام 854: وكان ذلك بهدف تحييد عامل مهم في القوة الدفاعية لسوريا، فعبر الأخير باتين عام 849 واستولى على كوي. لكن بعض الانتفاضات في حماة أعادته إلى الأذهان آنذاك، ولم يُخضع شرق كيليكيا بشكل منهجي إلا في أواخر عهده. كرّس شلمنصر قدرًا مفاجئًا من الاهتمام لهذه القصة الصغيرة والمعقدة.

في ركنٍ غامضٍ من آسيا الصغرى. يُسجل في عامه الخامس والعشرين أنه عبر أمانوس سبع مرات؛ وفي العام التالي نجده يدخل قيليقية مجددًا ويسير إلى طرسوس ليخلع أميرها ويضع مكانه آخر أكثر خضوعًا. وبما أنه، على ما يبدو، لم يستخدم قيليقية قاعدةً لعملياتٍ عسكريةٍ أخرى خارج طوروس، مكتفيًا باعترافٍ رسميٍّ بجلالته من أمير طبال، يُضطر المرء إلى الاستنتاج بأنه غزا الأرض لذاتها. بعد ما يقرب من ثلاثة قرون، ومن بين الضباب الذي تُحجب فيه قيليقية بإصرارٍ أكبر من أي جزءٍ آخر من الشرق القديم تقريبًا، ستُشرق هذه البلاد الصغيرة فجأةً كواحدةٍ من القوى الأربع الرئيسية في آسيا، يحكمها ملكٌ يتفاوض، جنبًا إلى جنب مع نبوخذ نصر الثاني، على السلام بين الليديين والميديين، كلٌّ في أوج قوته. ثم سينقشع الضباب عنها من جديد، ولن نسمع شيئًا يُذكر عن سلسلة طويلة من الملوك الذين حكموا طرسوس، حاملين لقبًا ملكيًا أُطلق عليه اسم سينيسيس، ولم يكن بينهم وبين أمراء الأناضول

الآخرين سوى القليل. ولكن يُمكننا أن نستنتج بشكل معقول من ظروف التدخل السلمي المذكور آنفًا أن قوة قيليقيا كانت تنمو منذ زمن طويل؛ وكذلك من كثرة غارات شلمنصر على البلاد، أنها كانت غنية ومتحضرة بالفعل في القرن التاسع. نعلم أنها كانت مركزًا عظيمًا لعبادة سندان، ويمكننا أن نخمن أن ملوكها كانوا من سلالة موشكي، وإن لم يكونوا أبرز الناجين من السلالة الأصلية التي غزت آشور في عهد تغلث فلاصر، فقد كانوا على الأقل من بين الورثة الرئيسيين لحضارة حتّي القديمة. بل إن البعض يُؤرخ حضارتها لأقدم من ذلك، معتقدين أن الكفتيين، الذين قدموا هدايا سخية لفراعنة الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها، كانوا قيليقيين.

للأسف، لم تُجرَ أي تنقيبات علمية في المواقع القديمة في قيليقية حتى الآن؛ ولكن لسنوات عديدة مضت، كان مشتري الآثار يتلقون من طرسوس وميناءها أحجارًا منقوشة وأختامًا ذات صنعة فائقة الدقة، تنتمي إلى الفن الحثي، لكنها تبدو أحدث عهدًا من معظم منتجاته. وتُظهر هذه الأختام في زخارفها تصاميم مميزة، لوحظت أيضًا في قبرص، وتُبرز بعض سمات الشكل المميزة، التي تظهر أيضًا في الفن الأيوني المبكر. إلى أن تتوفر أدلة أخرى، لا بد أن تكون هذه القطع الصغيرة شاهدًا على وجود ثقافة شبه حثية متطورة للغاية في قيليقيا، والتي، منذ القرن التاسع، كانت قد نضجت بالفعل بتأثير المستوطنات اليونانية على سواحل الأناضول، وربما حتى قبل ذلك، بتأثير الفن الكريتي في منطقة بحر إيجة. تُقدم الحضارة القيليقية رابطًا بين الشرق والغرب يستحق مزيدًا من الاهتمام والدراسة مما أولاه لها المؤرخون.

القسم 7. آسيا الصغرى

في آسيا الصغرى، ما وراء طوروس، ليس لدينا ما يدعونا إلى افتراض أن ملكًا آشوريًا من القرن التاسع قد سار بنفسه، على الرغم من أن عدة أرتال من الغارات زارت خانيغالبات وطبَل، وكان اعتراف أمراء كلا البلدين بالهيمنة الآشورية متقطعًا في النصف الأخير من عهد شلمنصر. كان الجزء الأبعد والأوسع من شبه الجزيرة الغربية يقع خارج نطاق الملك العظيم، وما نعرفه عنه في عام 800 أقل مما كان يعرفه الآشوريون أنفسهم. ومع ذلك، فإننا نعلم أنه كان يضم إمارة قوية تقع في وسط الجزء الجنوبي من حوض نهر سانغاريوس، الذي بدأ اليونانيون الآسيويون يعرفونه باسم فريجيا. كانت هذه القوة الداخلية تلوح في الأفق بشكل كبير في عالمهم - ضخمة بالفعل لدرجة أنها حجبت آشور في ذلك الوقت، وبدت في نظرهم أغنى دولة على وجه الأرض. واستنادًا إلى أهميتها في الأساطير اليونانية المبكرة، فإننا على يقين تام من أن نشأة صعودها، بل ووصولها إلى مكانة مهيمنة، تعود إلى فترة ما قبل عام 800 قبل الميلاد. لكن في الواقع، ثمة أسباب وجيهة أخرى للاعتقاد بأن هذه الإمارة، قبل نهاية القرن التاسع، سيطرت على مساحة أوسع بكثير من مساحة فريجيا اللاحقة، وأن حدودها الغربية كانت قد تمددت نحو الساحل الأيوني تقريبًا. ففي الإلياذة، على سبيل المثال، يُذكر الفريجيون

كجيران مباشرين للطرواديين؛ وتستند مجموعة كبيرة من الأساطير الهيلينية البدائية إلى الوجود المبكر للفريجيين، ليس فقط في طروادة نفسها، بل أيضًا على الساحل الغربي الأوسط حول خليج سميرنا وسهل كايستريا، حيث أقاموا من مواقعهم المتميزة علاقات مباشرة مع المهاجرين اليونانيين أنفسهم. لذلك، يبدو من المؤكد أنه في وقت ما قبل عام 800 قبل الميلاد، كان النصف الغربي بأكمله تقريبًا من شبه الجزيرة مدينًا بالولاء، بشكل أو بآخر، لسلطة سانغاريوس، وأن ملوك ليديا من سلالة هيراكليد لم يكونوا مستقلين عنها. إذا كانت فريجيا قوية بما يكفي في القرن التاسع للسيطرة على أراضي الأناضول الغربية، فهل سيطرت أيضًا على ما يكفي من شبه الجزيرة الشرقية لإدارة شؤونها؟

هل كان الوريث الإمبراطوري لكابادوكيا هاتي؟ تعتمد إجابة هذا السؤال (إن وُجدت، بناءً على أدلة ضئيلة جدًا) على وجهة النظر المُتبناة حول الهوية المُحتملة للقوة الفريجية مع تلك القوة الغامضة ولكن الحقيقية للموشكي، والتي سمعنا عنها بالفعل. الهوية المعنية مقبولة على نطاق واسع في الوقت الحاضر لدرجة أنه أصبح من الشائع لدى المؤرخين التحدث عن "الموشكي-الفريجيين". من المُحتمل جدًا أن يكونوا مُحقين. ولكن، على سبيل الحذر، لا بد من مُلاحظة أن الهوية تعتمد في النهاية على أخرى، وهي هوية ميتا، ملك الموشكي، الذي سيُحاربه آشور بانيبال بعد أكثر من قرن، مع ميداس، آخر ملوك فريجيا، الذي ذكره هيرودوت واحتُفي به في الأساطير اليونانية. إن افتراض هذه الهوية أمرٌ جذاب للغاية. يتطابق ميتا الموشكي وميداس الفريجي في التاريخ بشكل كافٍ؛ كلاهما حكم في آسيا الصغرى. كلاهما كانا قوتين رائدتين على ما يبدو هناك؛ وكلاهما قاتل مع الجيميراي أو الكيميريين. ولكن هناك أيضًا بعض الصعوبات التي ربما لم تُؤخذ في الاعتبار إلا قليلاً. فبينما يبدو أن ميتا كان اسمًا شائعًا في آسيا وصولاً إلى بلاد ما بين النهرين في فترة أبكر بكثير من ذلك، فإن اسم ميداس، من ناحية أخرى، وصل إلى فريجيا من الغرب في وقت لاحق بكثير، إذا كان هناك أي شيء في التراث اليوناني يشير إلى هجرة الفريجيين أو البريجيين من جنوب شرق أوروبا. وبما أن هذا التقليد لا يدعمه فقط ظهور أسماء وحكايات شعبية متشابهة في مقدونيا وفريجيا، ولكن أيضًا المظهر الغربي للفن والكتابة الفريجية اللاحقة، فلا يسعنا إلا أن ننكر فضله. وبناءً على ذلك، إذا وجدنا أصل الفريجيين في بريج المقدونية، فيجب أن نسلّم بأن ميداس، كاسم فريجي، جاء من أوروبا في وقت متأخر جدًا عن الظهور الأول للملوك الذين يُدعون ميتا في آسيا، ونحن مضطرون للشك فيما إذا كان الاسم الأخير هو نفسه ميداس بالضرورة. وعندما تُشير الإشارات إلى الموشكي في السجلات الآشورية إلى موطنهم المحلي، فإنها تقع في شرق، وليس غرب، سهل الأناضول الأوسط - وهو تقريبًا، في الواقع، المكان الذي عاش فيه الموشكي في العصور التاريخية اللاحقة. لذلك، يجب ترك النقاط التالية مفتوحة في الوقت الحاضر: (1) ما إذا كان الموشكي قد استقروا في فريجيا على الإطلاق؛ (2) ما إذا كان، إذا فعلوا، يمكن أن يكون الملوك الفريجيون الذين حملوا اسمي غورديوس وميداس موشكيين أو

قد أمروا بالولاء للموشكيين؛ (٣) هل كان الملوك المدعوون ميتا في سجلات سرجون وآشور بانيبال سادةً لموشكي الشرقية أكثر من فريجيا؟ لا يُمكن افتراض، بناءً على الأدلة الحالية على أي حال (مع أنه ليس مستبعدًا)، أن ملوك فريجيا حكموا موشكي كابادوكيا، وبموجب هذا الحكم كانت لديهم إمبراطورية تُضاهي تقريبًا نفوذ الحثيين المفقود.

ومع ذلك، كانت إمبراطوريتهم قوية، الأقوى في الأناضول، وقد أبهرت شهرة ثروتها ومدنها المسورة المجتمعات اليونانية، التي كانت قد ازدهرت آنذاك على السواحل الغربية والجنوبية الغربية. وقد مر بعض هؤلاء بمحن الطفولة ونشأوا ليصبحوا أسيادًا مدنيين، بعد أن أقاموا علاقات تجارية واسعة برًا وبحرًا. وفي القرن التالي، تزوج كيم من أيولس ملكًا فريجيًا. ٢٣

يبدو أن أفسس قد أصبحت بالفعل مركزًا اجتماعيًا ودينيًا مهمًا. ولا بد أن القطع الفنية التي عُثر عليها عام ١٩٠٥ على أرضية أقدم معبد لأرتميس في السهل (وكان هناك معبد أقدم في التلال) يعود تاريخها - بعضها - إلى ما لا يتجاوز عام ٧٠٠، ويشهد تصميمها وإتقان صنعها على ازدهار الفنون والحرف اليدوية الراسخة في المنطقة. وكانت ميليتوس أيضًا بلا شك مركزًا شامخًا للهيلينية، وعلى وشك أن تصبح أمًا للمدن الجديدة، إن لم تكن قد أصبحت كذلك بالفعل. ولكن، في وقت مبكر من هذا العام، عام ٨٠٠، لا نعرف سوى القليل عن المدن اليونانية الآسيوية بخلاف حقيقة وجودها؛ وسيكون من الحكمة تركها تنمو لقرنين آخرين والحديث عنها بإسهاب عندما تصبح عاملًا مؤثرًا في مجتمع غرب آسيا. وعندما نرفع الستار مجددًا بعد مئتي عام، سنجد أن الضوء الذي سُلط على المشهد الشرقي قد ازداد سطوعًا. فليس فقط أن السجلات المعاصرة سوف تزداد حجماً ووضوحاً، بل سوف نتمكن أيضاً من استخدام مصباح التاريخ الأدبي الذي تغذيته التقاليد، والتي لم يكن عليها أن تنجو من مرور أكثر من بضعة أجيال.

٣ .الشرق في عام ٦٠٠ قبل الميلاد

عندما ننظر إلى الشرق مجددًا في عام ٦٠٠ قبل الميلاد، بعد قرنين من الحروب والاضطرابات، ندرك أن جميع أراضيه تقريبًا قد وجدت أسيادًا جددًا. التغييرات السياسية هائلة. تلت الكارثة كارثة أخرى. انهارت سلالة فريجية في مذابح ونهب، ومن مركز قوة آخر، يحكم عميلها السابق آسيا الصغرى بدلاً منها. استسلمت معاقل الشعوب السامية الصغرى تقريبًا، وأصبحت سوريا كنزًا ثمينًا ينتزعه كلب أجنبي من آخر. لقد فشل العملاق الآشوري الذي سيطر على غرب آسيا وانهار، وملأ الميديون والكلدانيون - هاتان السحابتان اللتان لا يزيد حجمهما عن كف رجل، واللتان كانتا تلوحان في أفق آشور - مقعدها وغرفتها. عندما نسترجعها الآن، نجد أن الثورة السياسية قد اكتملت؛ ولكن لو عشنا في عام 600 في آشور أو دمشق أو صور أو طرسوس، لربما كان تأثيرها علينا أقل. إن وجود سيد جديد في الشرق لم يكن، ولا يعني دائمًا، أرضًا جديدة أو سماء جديدة.

دعونا نرى إلى أي مدى وصل هذا التغيير حقًا. لقد زالت الإمبراطورية الآشورية. هذه حقيقةٌ بالغة الأهمية، لا ينبغي الاستهانة بها. لقد حدثت الكارثة الأخيرة قبل ست سنوات فقط من تاريخنا؛ لكن قوة آشور كانت تتدهور منذ ما يقرب من نصف قرن، ومن الواضح، من الحرية التي استطاعت بها القوى الأخرى التحرك في منطقة إمبراطوريتها قبل وقتٍ من نهايتها، أن الشرق كان بمنأى عن تدخلها لسنوات. في الواقع، تعرّض مركزٌ قريبٌ وحيويٌّ للقومية الآشورية، كالح، العاصمة القديمة للإمبراطورية الوسطى، للنهب قبل أن يتولى آخر "ملكٍ عظيم" من الساميين الشماليين عرشه.

القسم 1. المملكة الآشورية الجديدة

على مدى المائة والخمسين عامًا الماضية، استذكر التاريخ الآشوري - وهو سجلٌّ للقمع الأسود في الخارج ومؤامراتٍ أشدّ قتامة في الداخل - التراكم السريع والزوال البطيء لعاصفةٍ عظيمة. ساد الهدوء النصف الأول من القرن التاسع. ثم، ودون سابق إنذار تقريبًا، انفجرت سحابةٌ من الغضب العارم واحتدمت لما يقرب من مئة عام. ثم يشرق الظلام حتى ينتهي كل شيء. انحدرت سلالة آشورناتسيربال وشلمنصر الثاني ببطءٍ إلى نهايتها الحتمية. ثارت العاصمة نفسها عام 747، وبعد أن تخلصت من الورثة الشرعيين، اختارت جنديًا ناجحًا، ربما كان، على حد علمنا، من سلالة ملكية، لكنه بالتأكيد لم يكن من سلالة مباشرة. رأى تغلث فلاصر - لأنه اتخذ اسمًا من ملوك سابقين، ربما لإثبات شرعيته - (أو أخبره مستشار حكيم) أن الإمبراطورية المتشددة التي اغتصبها يجب ألا تعتمد بعد الآن على جبايات سنوية من الفلاحين من القرى الآشورية، التي كانت تُستنزف بسرعة؛ ولا يمكنها الاستمرار في العيش على ابتزاز غير مؤكد يُجمع على فترات غير محددة، تارة وراء الفرات، وتارة في أرمينيا،

وتارة أخرى من جيرانها الشرقيين والجنوبيين. لقد عفا الزمن على هذه الأفكار والأساليب البدوية. جرب الملك العظيم الجديد أساليب جديدة للتعبير عن أفكار جديدة. جنديٌّ بمهنته، مدينٌ للسيفِ بعرشه، سيكون لديه قوةٌ دائمةٌ مدفوعة الأجر، لا قوةٌ تُستدعى من المحراثِ ربيعًا بعد ربيع. الأراضي، التي كانت تُرهِق القواتِ المُرسَلةِ خصيصًا من نهرِ دجلة، يجبُ من الآن فصاعدًا أن تُدمَج في الإمبراطوريةِ الإقليميةِ وأن تدفعَ مساهماتها للحكامِ والحامياتِ المقيمين. علاوةً على ذلك، لماذا لا تُؤدّي هذه الأراضيُ نفسها دورًا في الإمبراطوريةِ دفاعًا وهجومًا من خلالِ توفيرِ ضرائبَ خاصةٍ بها للجيوشِ الإمبراطورية؟ وأخيرًا، يجبُ استبدالُ العاصمةِ كالح، بتقاليدِ السلالةِ الراحلةِ والنظامِ القديمِ والتمردِ الحديثِ، بعاصمةٍ جديدةٍ، تمامًا كما استُبدِلت آشورُ ذاتَ مرةٍ بروحِها البابليةِ والكهنوتية. وبناءً على ذلك، يجبُ ترقيةُ المواقعِ الواقعةِ أعلى نهرِ دجلةِ وأكثرَ مركزيةً فيما يتعلقِ بالوطنِ الأمِّ والطرقِ الرئيسيةِ من الغربِ والشرقِ، لتكونَ عواصم. ولكن في الواقع، لم تُصبح نينوى المقر النهائي لآخر ملوك آشور إلا بعد انتهاء عهد سرجون.

وقد نُظمت هذه الآلة الإمبراطورية الجديدة وعززت خلال حكم تغلث فلاسر الذي دام ثمانية عشر عامًا، بجيشها المحترف الدائم، وقواتها الهائلة المستمدة من جميع الأعراق المقاتلة داخل أراضيها، وإيراداتها الضخمة والمضمونة، وبيروقراطيتها التي تُبقي المقاطعات على صلة دائمة بالمركز، وأصبحت أعظم قوة هجومية شهدها العالم. وما إن أدركت آشور قوتها الجديدة حتى طُردت بسهولة عبر أراضي نايري، التي طالما تعدت على بلاد ما بين النهرين، وحتى على سوريا، وحُوصرت في معاقلها المركزية في فان؛ وبسبب السهولة التي أُذلت بها بابل واحتلت مرة أخرى، والاستيلاء على الموانئ الفينيقية ومدينة دمشق، التي كانت منيعة حتى ذلك الحين، وفرض الجزية عليها، بدأت تحلم بعالم جديد.

الإمبراطورية، أول مجتمع في التاريخ يتصور هذا المثل الأعلى الذي لا يُضاهى. ومع ذلك، أرجأت بعض التأثيرات والأحداث لفترة من الوقت أي محاولة لتحقيق هذا الحلم. حدثت تغييرات في السلالات الحاكمة، ويعود الفضل في ذلك جزئيًا إلى القوى الرجعية في الداخل، وبشكل أكبر إلى الأساس البريتوري الذي قامت عليه المملكة آنذاك، ولم يخلف تغلث فلاصر إلا واحدًا من أفراد عائلته. لكن النكسة كانت قصيرة الأمد. في عام 722، اعتلى قائد منتصر آخر العرش، وتحت الاسم الشهير سرجون، انطلق لتوسيع حدود الإمبراطورية نحو ميديا شرقًا، وعبر قيليقية إلى تابال غربًا، حتى اصطدم بالملك ميتا من موشكي، وألزمه بالجزية.

<u>القسم الثاني: إمبراطورية سرجون</u>

على الرغم من أنه كان لا يزال يتعين ضم مقاطعة كبيرة واحدة على الأقل إلى الإمبراطورية الآشورية، إلا أن عهد سرجون يُعتبر فترة أوج قوتها. لم يُسلم سنحاريب أي فتوحات لم يكن من الممكن تحقيقها، بل أوسع مساحة من الأراضي التي كانت السلطة المركزية قادرة على

السيطرة عليها. يمكننا التوقف، إذن، قبيل وفاة سرجون عام 705، لنرى ما كانت عليه مساحة تلك الأراضي فعليًا.

بالطبع، لا يمكن تحديد حدودها بدقة الجغرافي السياسي المعاصر. تلاشت الأراضي المحتلة تدريجيًا لتصبح مناطق نفوذ، ثم عادت هذه المناطق إلى أراضٍ تُغار عليها عادةً، أو حتى نادرًا. في بعض الأوساط، وخاصةً من الشمال الشرقي إلى الشمال الغربي، يُعاني فهمنا الحالي لمصطلحات الجغرافيا القديمة، التي استخدمها الساميون، من قصورٍ كبير. وعندما يُخبرنا ملكٌ آشوريٌّ بدقةٍ عن الأراضي والمدن والجبال والأنهار التي زارها جيشه، لا يعني ذلك بالضرورة أننا نستطيع تحديدها بدقة. ولا ينبغي أن تُؤخذ السجلات الملكية على ظاهرها تمامًا. يجب السماح ببعض التنازلات (ولكن من المستحيل تقريبًا تحديد مدى ذلك) في التقارير، التي غالبًا ما تُنسب جميع أعمال حملة لم يشارك فيها الملك شخصيًا (كما يُمكن إثباته في بعض الحالات) إلى براعته وحدها، وتُعدد ببلاغةٍ ستّين إمارةً ومملكةً اجتازتها وهُزمت خلال حملة صيفية واحدة في بلدٍ شديد الوعورة. إن وهم الإنجاز الهائل، الذي كان من المفترض خلقه على هذا النحو، قد فرض نفسه في كثير من الأحيان على النقاد المعاصرين، ويُنسب إلى تغلث فلاصر وسرجون الزحف إلى جوار بحر قزوين، وغزو أو الاستيلاء على مقاطعات عظيمة، في حين أن قواتهما ربما لم تكن تفعل أكثر من التسلق من وادٍ إلى وادٍ حول منابع نهر دجلة، ومداهمة زعماء لا يتمتعون بثروة إقليمية أكبر من البكوات الأكراد في حكاري.

إلى الشرق من آشور نفسها، لا يبدو أن إمبراطورية سرجون الإقليمية قد امتدت تمامًا إلى مستجمعات مياه زاغروس؛ لكن نطاق نفوذه لم يشمل فقط منابع وديان الزاب، بل شمل أيضًا منطقة على الجانب الآخر من الجبال، وامتد إلى همدان وجنوب غرب أذربيجان، وإن لم يشمل بالتأكيد المناطق الشرقية أو الشمالية من المقاطعة الأخيرة، أو كاسوان، أو أي جزء من ساحل بحر قزوين. شمالاً، كان من الممكن عبور حدود الإمبراطورية الآشورية الإقليمية في غضون أيام قليلة سيراً على الأقدام من نينوى. لم تكن شواطئ أرومية ولا بحيرة وان محتلة بانتظام من قبل آشور، ومع أن سرجون قد ضمّ مملكة أورارتو إلى دائرة نفوذه، التي كانت تُحيط بالبحيرة الأخيرة وتسيطر على القبائل حتى الشاطئ الغربي للأولى، إلا أنه لم يُثبت أن جيوشه طارت شرق وشمال بحيرة أرومية، ومن الواضح تماماً أنها تركت المنطقة الجبلية الشمالية الغربية بين بتليس والفرات الأوسط لأبناء قبائلها.

ومع ذلك، غرباً وجنوباً، امتدت يد سرجون على نطاق أوسع. استولى على كامل بلاد ما بين النهرين حتى دير بكر، وما وراء سوريا، ليس فقط على كيليكيا الشرقية والوسطى، بل أيضًا على بعض المناطق الواقعة شمال طوروس، أي سهل ميليد أو ملاطية المنخفض، والجزء الجنوبي من تابال؛ ولكن من المرجح أن نفوذه لم يمتد فوق الهضبة إلى أبعد من خط ممتد من

رأس توخما سو إلى جوار تيانا، ويعود من هناك إلى بوابات قيليقية. وخلف هذا الخط، بدأت منطقة نفوذ لا يمكننا تحديدها، ولكن قد نخمن أنها امتدت إلى كابادوكيا وليكاونية والجزء الجنوبي من فريجيا. جنوبًا، كانت كل سوريا لسرجون، معظمها بالاحتلال المباشر، والباقي بحكم السيادة المعترف بها ودفع الجزية. حتى أمراء قبرص السبعة قدموا مثل هذا الخضوع. على سبيل المثال، امتنعت مدينة أو مدينتان سوريتان قويتان، صور والقدس، عن الدفع إذا لم يكن هناك جيش آشوري في متناول اليد؛ لكن استقلالهم لم يُحافظ عليه إلا بالصبر. بعد انتصار سرجون على قواتهم وحلفائهم المصريين في رافيا عام ٧٢٠، لم تعد المدن الفلسطينية تدافع عن أسوارها، وامتدت دائرة نفوذ الملك العظيم شرقًا عبر من حمد وجنوبًا عبر شمال شبه الجزيرة العربية. وأخيرًا، أصبحت بابل ملكًا له حتى الخليج العربي، حيث دعمه التجار الأغنياء بقوة في سبيل تجارة قوافلهم، مهما تذمر الكهنة والفلاحون. أما عيلام، التي جلب ملكها وشعبها مشاكل جسيمة إلى آشور نفسها في بداية حكمه، فلا تُعتبر بالنسبة لسرجون حتى كمنطقة نفوذ. فقد جعلتها مستنقعات جنوبها الغربي، وسهولها الاستوائية في وسطها، وجبالها في شرقها، أرضًا صعبة الغزو والاحتفاظ بها على الساميين الشماليين. وكان سرجون حكيمًا بما يكفي لتركها على حالها. ولن يكون ابنه وخلفاؤه بمثل هذا القدر من الحكمة أو الحظ.

القسم 3. فتح مصر

هكذا كانت الإمبراطورية التي ورثها ابن سرجون، سنحاريب. لم يكتفِ بذلك، بل ذهب أبعد من ذلك ليُحقق غزوًا لم يطل به الزمن في أيدي قوة آسيوية. لم يكن شهوة الغنائم وحدها هي التي دفعت آشور نحو مصر. فقد وجد الملوك العظماء منذ زمن طويل أن نفوذهم في جنوب سوريا يُقابل بنفوذ الفراعنة. اعتمد أمراء كلتا الدولتين العبريتين، ومدن الفينيقية والفلسطينية، وحتى دمشق، على مصر في وقت أو آخر، وشعرت آشور، وراء تحالفاتهم الدفاعية وثوراتهم الفردية، بقوتها على النيل. لم يفعل هذا الأخير، في الواقع، أكثر مما فعل لإسرائيل عندما حاصر شلمنصر الرابع السامرة، واستولى سرجون عليها وحاصرها؛ ولكن حتى الآمال الواهية والوعود الفارغة بالمساعدة تُسبب اضطرابات مستمرة. لذلك، بعد عقابٍ قاسٍ على الدول الجنوبية عام 701 (مع أن كلاً من صور وأورشليم أبقاه خارج أسوارهما)، وصراعٍ طويل مع بابل الكلدانية، اضطر سنحاريب إلى الانطلاق في العام الأخير، أو ما قبل الأخير، من حكمه إلى مصر. وفي جنوب فلسطين، حقق نجاحًا كسابق عهده، ولكن بعد ذلك، حلت به كارثةٌ ما. ربما اجتاح وباءٌ جيشه وهو على مقربةٍ من الحدود، فعاد إلى آشور ليُقتل.

27

ورث سنحاريب هذه المغامرة لابنه الذي، بعد هزيمة إخوته القتلة، ثبت عرشه وحكم أحد عشر عامًا تحت اسمٍ اتُّفق على كتابته "أسرحدون". بمجرد قمع الحركات في أورارتو وجنوب

غرب آسيا الصغرى، والأهم من ذلك، استرضاء بابل، التي أهانها والده، شرع أسرحدون في الغزو غير المكتمل. مصر، التي كانت آنذاك في أيدي سلالة أجنبية من أعالي النيل، ومنقسمة على نفسها، لم تُسبب له أي مشاكل في البداية. في حملته الثانية (670)، وصل إلى ممفيس نفسها، وسيطر عليها بالهجوم، وطرد الكوشيين من طيبة إلى الشلالات. أعلن الآشوريون مصر أرضهم، وبسطوا عليها شبكة بيروقراطية نينوى جنوبًا حتى طيبة؛ لكن لا هو ولا خلفاؤه اهتموا بتبني لقب الفراعنة، كما فعل الفرس واليونانيون، الأكثر حكمة في أجيالهم، لاحقًا. سرعان ما استدعى الاضطراب في الوطن، الذي أثاره تمرد ابن على عادات الشرق القديمة، أسرحدون إلى آشور؛ فتقدم ترهاقة من الجنوب؛ وعاد الملك العظيم لملاقاته ومات في مسيرته.

لكن خليفة أسرحدون أعاد احتلال ممفيس، وبما أن الأخير استولى على طيبة ودمرها أيضًا، وبعد وفاة ترهاقة، طرد الكوشيين من مصر، فإن الفضل المشكوك فيه في توسيع الإمبراطورية الآشورية الإقليمية إلى أوسع حدود وصلت إليها يعود إلى آشور بانيبال. حتى صور استسلمت أخيرًا، ومد نطاق نفوذه ليشمل آسيا الصغرى حتى ليديا. وكان أول ملوك آشور الذين ادّعوا ملكيته لعيلام وعاصمتها سوسة (بعد عام 647)، وفي الشرق، أعلن سيادته على جميع ميديا. بلغت فنون وآداب بلاد ما بين النهرين ذروة ازدهارها منذ عهد حمورابي، وامتدت شهرة ثراء وترف "سردانابال" حتى إلى الأراضي اليونانية.

حوالي عام 660 قبل الميلاد، بدت آشور، إلى حدٍّ ما، سيدة الأرض الفاضلة.

القسم 4. انحدار آشور وسقوطها

مع أن الإمبراطورية الآشورية بدت قوية في القرن السابع، إلا أنها كانت فاسدة في جوهرها.

وبتخلصها من بعض نقاط الضعف، خلقت نقاط ضعف أخرى. ولم يجد ملوك نينوى العظام اللاحقون، الذين رُفعوا إلى السلطة وحافظوا عليها برماح الحرس البريتوريين المأجورين، دعمًا أقل حتى مما وجدته سلالة كالح القديمة، في المشاعر الدينية الشعبية، التي كانت (كما هو الحال في الشرق) الأساس النهائي للقومية الآشورية؛ كما لم يتمكنوا، في ظل هذه الظروف، من استمداد قوة كبيرة من المشاعر القبلية، التي تنجو أحيانًا من الأساس الديني.

على مدار تاريخ المملكة الحديثة، يمكننا رصد تأثير معارضة قوية متمركزة في آشور. هناك، استقر آخر ملوك المملكة الوسطى تحت جناح الكهنة؛ وهناك، خلعته السلالة الجديدة عن عرشه، محققةً بذلك انتفاضةً مناهضةً للكهنوت للنبلاء والفلاحين.

يبدو أن سرجون قد يدين بصعوده بعد جيلين إلى انتقام أهل المدينة لهذا النصر؛ لكن ابن سرجون، سنحاريب، بدوره، وجد سيطرة الكهنة لا تُطاق، وفي محاولة لسحقها إلى الأبد، دمر

بابل وأرعب المعقل الرئيسي للعبادة السامية، المؤسسة الكهنوتية العظيمة لبل مردوخ. بعد مقتل والده، عاد أسرحدون إلى الكهنة، وبذل جهدًا كبيرًا لكسب الدعم الديني، لدرجة أن الحزب العسكري حرض آشور بانيبال على التمرد وأجبر والده على إشراك ابنه في السلطة الملكية قبل مغادرة آشور للمرة الأخيرة ليموت (أو يُقتل) في طريقه إلى مصر. وهكذا، فإن سجل الخلافة الأسرية في المملكة الحديثة كان شرقيًا بامتياز، متوقعًا، مع كل تغيير للملك، تاريخ الإمبراطوريات الإسلامية. لا يوجد أي أثر لمشاعر وطنية متفق عليها تجاه الملك العظيم. يكتسب شاغل العرش تلو الآخر السلطة بفضل حزب، ويتمسك بها بسيوف المرتزقة.

وكان ضعف إمبراطوري آخر أشد فتكًا. فبقدر ما يمكن تعلمه من سجلات آشور نفسها وسجلات الآخرين، عاشت على إمبراطوريتها الإقليمية دون أدنى التزام بتقديم أي شيء لأقاليمها مقابل ما قدمته - ولا حتى ما قدمته روما في أسوأ حالاتها، أي السلام. اعتبرت وجودهم مجرد إمداد لها بالمال والرجال.

28

وعندما كانت ترغب في إقامة حامية أو إضعاف أي مقاطعة محتلة، كانت تُرحّل سكان مقاطعة محتلة أخرى إلى هناك، بينما يشغل الرعايا الجدد المكان الشاغر. ما حدث عندما استولى سرجون على السامرة حدث كثيرًا في أماكن أخرى (آشور بانيبال، على سبيل المثال، جعل طيبة وعيلام تتبادلان السكان)، لأن هذه كانت الطريقة الوحيدة التي ابتكرتها آشور لاستيعاب السكان الأجانب. عندما حاولت استخدام السكان الأصليين لحكم السكان الأصليين، كانت النتيجة كارثية، كما حدث بعد تعيين آشور بانيبال لسماتيك، ابن نخو، حاكمًا على ممفيس وغرب الدلتا.

كانت آشور، المتآكلة داخليًا، والمكروهة والمطمع بها من قبل الأجناس القوية والمتحاربة في الشرق والشمال والجنوب، تتقدم بثبات نحو كارثتها وسط كل مجد "سردانابال". تسارعت وتيرة الوتيرة برحيله. خطرٌ كان كامنًا منذ زمنٍ طويلٍ خلف الأفق الشرقي، قد برز الآن في مجال رؤية الآشوريين. منذ غارات سرجون المنتصرة، تقلص نفوذ الملك العظيم تدريجيًا في ميديا؛ وبغزواته الانتقامية لعيلام، التي أثارها سنحاريب، لم يستنفد آشور بانيبال موارده العسكرية فحسب، بل أضعف قوةً كانت تُستخدم لكبح جماح أعداءٍ أشد خطورة. لقد رأينا أن "الميديين" كانوا على الأرجح مزيجًا من السكيثيين والإيرانيين، وكان العنصر الأخير يُغذي الطبقات الحاكمة والكهنوتية. ويبدو أن العنصر السكيثي كان يتلقى تعزيزات كبيرة. وقد أجبر سبب غامض، يُزعج السهوب الشمالية، رعاتها المحاربين على التحرك جنوبًا بأعداد كبيرة. هبطت مجموعة كبيرة، تُدعى "الغيميراي" أو "الكيميريون"، على آسيا الصغرى في القرن السابع واجتاحتها حتى الحافة الغربية للهضبة وما وراءها؛ وضغط آخرون على وسط وشرق

أرمينيا، وبإضعافهم الملك الفاني، مكّنوا آشور بانيبال من إعلان إذلال أورارتو؛ وتجمع آخرون مرة أخرى خلف زاغروس وبدأوا في اختراق الوديان الآشورية. وحتى بينما كان آشور بانيبال لا يزال على العرش، فقد غامر بعض هؤلاء الأخيرين بالتوغل في مملكته. ففي عام وفاته، ظهرت فرقة من السكيثيين في سوريا وشنّت غارات جنوبًا حتى حدود مصر. كانت هذه الغارة هي التي أنهت فعليًا السيطرة الآشورية على سوريا، ومكّنت يوشيا المقدسي وآخرين من استعادة استقلالهم.

تزامنت وفاة آشور بانيبال أيضًا مع نهاية الحكم الآشوري المباشر على بابل.

بعد وفاة أخٍ متمرد ونائب ملك عام 648، اعتلى الملك العظيم بنفسه التاج البابلي وحكم المدينة المقدسة باسم بابلي. ولكن كانت هناك إمارات كلدانية قائمة منذ زمن طويل، مدمجة بشكل غير كامل في الإمبراطورية الآشورية، وقد ألهمت هذه الإمارات، التي كانت تُلهم الثورات من وقت لآخر، ثوراتٍ من حين لآخر، ونجحت بالفعل في تنصيب أكثر من سلالة على عرش بابل. بمجرد أن ولى عهد "سردانابال" وبدأ السكيثيون في اجتياح آشور، تقدمت إحدى هذه الإمارات (التي لا يُعرف اسمها) إلى الواجهة، وضمنت التاج الجنوبي لأميرها نبو-أبلو-أوتسور، أو كما كتب الإغريق الاسم، نبوبولاصر. سارع هذا الكلداني إلى تعزيز مكانته بزواج ابنه، نبوخذنصر، من أميرة ميدية، وتخلى عن آخر ذريعة للخضوع للسيادة الآشورية. سيطر على جنوب بلاد ما بين النهرين وطريق التجارة في وادي الفرات بحلول عام 609.

في مطلع العقد الأخير من القرن، إذن، لدينا هذه الحالة.

يسيطر السكيثيون والميديون على معظم شرق ووسط آشور؛ ويسيطر الكلدانيون على جنوب بلاد ما بين النهرين؛ بينما سوريا، معزولة عن مركز الإمبراطورية القديم، لا يملك أحدٌ سوى الاستيلاء عليها والاحتفاظ بها. يظهر مُطالبٌ بها فورًا في شخص نخو المصري، المنحدر من صلب إبساماتيخوس الذي استعاد بلاد النيل من آشور. دخل فرعون سوريا على الأرجح عام 609، واخترق بسهولة الحاجز الذي وضعه يوشيا المقدسي، الذي تجرأ بشدة في ذلك اليوم من ضعف الآشوريين، في طريقه عند مجدو، ثم اتجه شمالًا وشرع في التصرف كما يشاء في غرب الإمبراطورية الآشورية لمدة أربع أو خمس سنوات. كاد مصير نينوى أن يتحقق. فمع فقدان كل شيء تقريبًا خارج أسوارها، صمدت في وجه هجمات السكيثيين حتى عام 606، ثم سقطت في يد الميديين أوفاخشاترا، المعروفين لدى الإغريق باسم كياخاريس. دُمِّرت عاصمة غرب آسيا المنهارة على يد الغزاة تدميرًا لم يُعافها أبدًا، وزالت حياتها إلى الأبد عبر نهر دجلة، إلى الموقع الذي تقع عليه الموصل حاليًا.

القسم 5. البابليون والميديون

بعد ست سنوات، في عام 600 قبل الميلاد، كان هذا هو موقع ذلك الجزء من الشرق الذي كان يُشكِّل الإمبراطورية الآشورية. كان نبوخذ نصر، ملك بابل الكلداني، الذي خلف والده حوالي عام 605، يُسيطر على النصيب الأكبر منها بالطاعة والجزية، ولكن ليس، على ما يبدو، عن طريق أي تنظيم بيروقراطي مركزي كالذي أنشأه الآشوريون.

قبل وفاة والده بقليل، هزم المصريين في معركة ضارية تحت أسوار كركميش، ثم طاردهم جنوبًا عبر سوريا، وربما عبر الحدود، قبل أن يُستدعى لتولي خلافته. لذا، لم يعد له منافس أو منافس نشط في سوريا، ويبدو أن هذا الجزء من إمبراطورية آشور المفقودة قد تمتع بفترة سلام نادرة في ظل أمراء محليين تابعين حكموا، إلى حد ما، على أسس آشورية. كانت صور والقدس، اللتان اعتمدتا على مصر، المكانين المسورين الوحيدين اللذين أظهرا أي تحدٍّ. صمد الأول بعد حصار متقطع دام ثلاثة عشر عامًا؛ أما الآخر، بموارد أقل بكثير، فقد دفع ثمنًا باهظًا لاعتماده طويلًا على "عصا قصبة مكسورة."

بالنسبة للشرق والشمال، لا بد من سرد قصة مختلفة، إذا استطعنا سردها كاملة. ولكن على الرغم من أن التقاليد اليونانية تساعدنا، إلا أنها لا تتحدث عن هذه المناطق النائية بقدر ما تتحدث عنه السجلات المنقوشة لتلك الإمبراطورية، التي كانت قد شارفت على نهايتها، حتى الآن: وللأسف، لم يترك ورثة آشور الميديون أي سجلات كتابية خاصة بهم - على الأقل لم يُعثر على أي منها. إذا كان العنصر الرئيسي لقوة كياخاريس الحربية، كما يبدو مرجحًا، هو السكيثيون، فمن الصعب أن نتوقع العثور على سجلات لغزوه أو مسيرة الميديين اللاحقة، حتى لو كُشف النقاب عن إكباتانا أسفل موقع همدان الحديثة؛ لأن السكيث المفترس، مثل المغول في العصور الوسطى، توقف لفترة قصيرة جدًا لدرجة أنه لم يرغب في نحت الأحجار، وربما كان يفتقر إلى المهارة اللازمة لنقشها.

ولإكمال خيبة أملنا، فإن المصدر الوحيد الآخر المحتمل للضوء، وهو السجلات البابلية، لا يلقي أي ضوء من الآن فصاعدًا على البلاد الشمالية، ولا يلقي سوى القليل جدًا على أي بلد.

لم يتبنَّ نبوخذ نصر - على حد ما عُثر عليه من سجلاته وقُرئت - العادة الآشورية في تعداد حملاته ومعاركه في المقام الأول؛ ولولا الكتب المقدسة العبرية، لما كنا نعرف أن جيوشه غادرت بابل، التي يبدو أن إعادة بناء وتزيين مدنها وأضرحتها شكلت اهتمامه الرئيسي.
صحيح أنه بصمته هذا عن العمليات الحربية، فإنه يتبع سابقة ملوك بابل السابقين؛ ولكن من المحتمل أن هذه السابقة نشأت من حقيقة أن بابل كانت دولة تابعة بشكل أو بآخر لفترة طويلة ماضية.

لذا، يجب أن نستنتج. هناك حدثان أو ثلاثة أحداث مسجلة سابقة ولاحقة لتاريخنا، وهي ذات فائدة. أولاً، نعلم من السجلات البابلية أن كياخاريس، بالإضافة إلى اجتياحه جميع بلاد آشور

والجزء الشمالي من بابل بعد سقوط نينوى، استولى على حران ومعبدها في شمال غرب بلاد ما بين النهرين ونهبهما. الآن، من سجلات أخرى لنابونيدوس، الرابع بعد نبوخذ نصر، سنعرف أيضًا أن هذا المعبد لم يقع في أيدي البابليين حتى منتصف القرن التالي.

ومن المنطقي الاستنتاج أنه ظل منذ عام 606 قبل الميلاد تحت سيطرة الميديين، وأن شمال بلاد ما بين النهرين، وكذلك آشور، شكلا جزءًا من "إمبراطورية" ميدية غير مترابطة لمدة نصف قرن كامل قبل عام 552 قبل الميلاد.

ثانيًا، يشهد هيرودوت على حدث معين وقع حوالي عام 585، في منطقة قريبة من بلده بما يكفي ليكون معروفًا لديه جيدًا.

30

يذكر أنه بعد حملة استكشافية إلى كابادوكيا وحرب مع ليديا، حصل الميديون، بموجب معاهدة مع الأخيرة روج لها ملك بابل وأمير قيليقيا، على نهر هاليس كـ"حدود علمية" في الشمال الغربي. هذا البيان لا يترك لنا أي شك في أن العلاقات العامة من الواضح أن سلطة إكباتانا قد امتدت عبر أرمينيا إلى دولة كابادوكيا الحثية القديمة، وكذلك إلى جميع أنحاء شمال بلاد ما بين النهرين، بالمعنى الأوسع لهذا المصطلح الغامض.

ربما يمكن استنتاج شيء آخر بشكل مشروع من نفس هذا المقطع من هيرودوت.

لا بد أن وساطة الملكين، المقترنين بشكل غير متوقع، تعني بالتأكيد أن كل منهما كان صديقًا وحليفًا لأحد الطرفين المتحاربين. إذا كان الأمر كذلك (لأنه من الصعب أن تكون لملك بابل مثل هذه العلاقة مع ليديا البعيدة، بينما قد يكون الأمير الآخر صديقًا لها)، فمن المحتمل أن كيليكيا كانت خارج "نطاق نفوذ" الميديين، بينما كانت بابل تقع ضمنه؛ ونبوخذنصر - إذ لا بد أنه كان كذلك عند النظر إلى التاريخ، مع أن هيرودوت يُطلق عليه اسم لابينيتوس، وهو اسم غير معروف - لم يكن حاكمًا مستقلًا تمامًا، مع أنه بلا شك حاكم أول وأعظم الدول التابعة لميديا.

لعل هذا هو السبب في أنه لم يُخبرنا إلا قليلاً عن الحملات والمعارك، وحصر سجلاته في الأحداث المحلية. فإذا كانت جيوشه قد سارت فقط لتنفيذ أوامر قريب أجنبي، فلا بد أنه شعر بفخر فاتر تجاه إنجازاتها.

في عام 600 قبل الميلاد، علينا أن نتخيل "إمبراطورية" ميدية، ربما من النوع المُغَيِّر، مركزها غرب بلاد فارس الحديثة، وتمتد غربًا على كامل أرمينيا (حيث اندثرت مملكة فان)، وجنوبًا إلى نقطة غير محددة المعالم في بلاد ما بين النهرين. وراء هذه النقطة، امتدت جنوبًا

وغربًا دائرة نفوذ ميديا، شملت بابل وكل ما خضع لنبوخذنصر، حتى حدود عيلام من جهة، وحدود مصر من جهة أخرى. ولأن قلب هذه "الإمبراطورية" كان في الشمال، فقد كانت أنشطتها الرئيسية تجري هناك أيضًا، وربما نادرًا ما كان يُعيق حُكم الملك البابلي من قِبل سيده الميدي. في توسيع نفوذهم غربًا نحو آسيا الصغرى، اتبع الميديون طرقًا شمال طوروس، بدلًا من طريق الحرب الآشوري القديم عبر قيليقية. يمكننا الجزم بذلك إلى حد كبير. أما الكثير مما رواه لنا هيرودوت عن ميديا - روايته الرائعة عن إكباتانا، وروايته الرائعة عن البيت الحاكم - فيجب تجاهله حتى يتضح أمرٌ ما؛ ولعل ذلك لن يتحقق أبدًا.

القسم 6. آسيا الصغرى

مع ذلك، لا يزال هناك جزء كبير من الشرق لم يكن يدين بالولاء لميديا ولا لبابل. إنها، في الواقع، منطقة أكبر بكثير مما كانت مستقلة عن الشرق الأقصى في تاريخ مسحنا الأخير.
كانت آسيا الصغرى، على الأرجح، مستقلة من أقصاها إلى أقصاها، من بحر إيجة إلى نهر الفرات - لأنه في عام 600 قبل الميلاد، ربما لم يكن كياخاريس قد عبر أورارتو بعد - ومن البحر الأسود إلى خليج إسوس. لدينا الآن معلومات أكثر موثوقية عن معظم هذه المنطقة مما كانت عليه عندما نظرنا إليها آخر مرة، لأنها وقعت تحت أعين اليونانيين في المدن الساحلية الغربية، وأقامت معهم علاقات تجارية وحربية. أما عن البقية، التي كانت تقع بعيدًا جدًا شرقًا بحيث لا تهم اليونانيين كثيرًا، فلدينا معلومات أقل مما كانت لدينا في عام 800 قبل الميلاد، بسبب فشل السجلات الإمبراطورية الآشورية. الحقيقة السائدة في آسيا الصغرى عام 600 قبل الميلاد هي وجود قوة إمبراطورية جديدة، هي ليديا. كانت تتخذ من وسط غرب شبه الجزيرة مقرًا لها، وامتد نفوذها شرقًا عبر الهضبة حتى حدود الدولة الفريجية السابقة، التي قامت على أنقاضها. وكما ذُكر سابقًا، هناك ما يدعو للاعتقاد بأن "مجال نفوذها"، على أي حال، شمل كيليكيا، وستُثبت المعركة التي ستُخاض على نهر هاليس، بعد خمسة عشر عامًا من دراستنا الحالية، أن محاولة السيطرة على كبادوكيا قد جرت أيضًا. قبل أن نتحدث عن مملكة ليديا، وعن صعودها إلى موقعها الحالي، سيكون من الأفضل التخلص من تلك الدولة النائية في الجنوب الشرقي، والتي ربما كانت حليفة أو حتى تابعة لليديا، 31 والتي قيل لنا إنها كانت في ذلك الوقت إحدى "القوى الأربع في آسيا". شملت هذه القوى بابل أيضًا، وبالتالي، إذا صحّ تخميننا بأن الميديين كانوا آنذاك سيدًا لنبوخذنصر، فإنّ تصريح يوسابيوس هذا، إن صحّ، لا يعني ضمنًا أن قيليقية قد بلغت مكانة إمبراطورية. لا شكّ أنها كانت الأدنى من بين "القوى" الأربع.

القسم 7. قيليقية

لا بدّ من التذكّر كم أولى إمبراطورٌ غازٍ عظيمٌ في العصر الآشوري الوسيط، شلمنصر الثاني، هذه البلاد الصغيرة اهتمامًا بالغًا. ولم يُكرّس ملوك السلالات اللاحقة الفاتحون أقلّ من ذلك. من سرجون إلى آشور بانيبال، كانوا هم أو جيوشهم هناك كثيرًا، وحكامهم باستمرار. يُقال إن سنحاريب أعاد بناء طرسوس "على غرار بابل"، وكان آشور بانيبال، الذي كان عليه أن يهتم بشؤون آسيا الصغرى أكثر من أيٍّ من أسلافه، وثيق الصلة بطرسوس، لدرجة أن تقليدًا شائعًا في العصور اللاحقة وضع مشهد وفاته وإقامة ضريحه العظيم هناك. وفي الواقع، ربما مات هناك، على حد علمنا؛ إذ لم يُعثر على أي أثر آشوري.

تخبرنا السجلات أنه لم يفعل. فعلى عكس بقية آسيا الصغرى، أنقذ الآشوريون قيليقية من ويلات الكيميريين. ويُقال إن زعيمهم، دوغدام، الذي أطلق عليه الإغريق اسم ليغداميس، لقي حتفه على تلال طوروس الحدودية، والتي، بلا شك، فشل في عبورها. وهكذا، عندما سمح موت آشور بانيبال وتقلص قوة نينوى للتابعين البعيدين باستعادة استقلالهم، سرعان ما اكتسبت قيليقية، التي لم تتضرر ثروتها، أهمية كبيرة. وسّع ملوك طرسوس نفوذهم إلى الأراضي المجاورة، مثل كوي شرقًا وتابل شمالًا، وربما حتى إلى أراضي كوموك؛ إذ إن هيرودوت، الذي كتب بعد قرن ونصف من تاريخنا، يجعل نهر الفرات حدودًا لقيليقية. من الواضح أنه أدرك أن الجزء الشمالي من سورية، الذي أطلق عليه الجغرافيون اللاحقون (ولكنه لم يسمه قط) كوماجيني، كان آنذاك ولفترة طويلة أرضًا قيليقية. في الواقع، تعود أفكاره الجغرافية إلى قيليقية الكبرى في عصور ما قبل الفرس، والتي كانت إحدى "القوى العظمى الأربع في آسيا."

إن السمة الأكثر إثارة للاهتمام في تاريخ قيليقية، كما يُكشف عنها نادرًا وبصورة مبهمة في سجلات المملكة الآشورية الجديدة، تتمثل في صلتها بمغامرات الإغريق المبكرة شرقًا. كان أول ملك آشوري اصطدم به هؤلاء الرجال الغربيون هو سرجون، الذي وجد سفنهم في أواخر القرن الثامن فيما اعتبره مياهه الخاصة، أي على سواحل قبرص وقيليقية، وافتخر بأنه "اصطادهم كالأسماك". وبما أن هذا العمل، كما يضيف، "أراح كوي وصور"، فمن المنطقي أن نستنتج أن "القراصنة الأيونيين" لم يظهروا آنذاك على شواطئ فينيقيا وكيليكيا لأول مرة؛ بل على العكس، كانوا بالفعل خطرًا محدقًا في أقصى شرق بلاد الشام. في عام 720، نجد يونانيًا مجهول الهوية من قبرص (أو أيونيا) يحكم أشدود بالفعل. واجه خليفة سرجون، سنحاريب، مشاكل خطيرة مع الأيونيين بعد بضع سنوات فقط، كما يتضح من مقارنة سجل ملكي له، استُعيد وقُرئ مؤخرًا، ببعض التصريحات التي يُحتمل أن المؤرخ البابلي، بيروسوس، قد أدلى بها في المقام الأول، لكنها محفوظة لنا في سجل تاريخي لاحق، لم يُؤخذ بعين الاعتبار حتى ذلك الحين. بجمع هذه المعلومات المتفرقة، استنتج الباحث الآشوري، كينج، أنه في الحملة المهمة التي أجبرت ثورة طرسوس، بمساعدة شعوب جبال طوروس في الغرب والشمال، قادة سنحاريب على شنها في كيليكيا عام 698، لعب الأيونيون دورًا بارزًا

برًا، وربما أيضًا بحرًا. ويقال (حسب مؤرخ يوناني متأخر) إن سنحاريب بنى معبدًا "أثينيًا" في طرسوس بعد النصر، الذي تحقق بصعوبة بالغة؛ وإذا كان هذا يعني، كما قد يعني، معبدًا "أيونيًا"، فإنه يُثبت حقيقة لا تُصدق بأي حال من الأحوال، نظرًا لوجود اتصال محلي كبير بين الكيليكيين ورجال الغرب. وقد ذُكرت أوجه تشابه مذهلة في الشكل والتنفيذ الفني بين أعمال النحت والتوريوتيكا المبكرة في أيونيا وكيليكية على التوالي في الفصل الأخير؛ ويكفي أن نضيف هنا، في الختام، أنه إذا كانت لقيليقيا علاقات مع أيونيا

32

في وقت مبكر من مطلع القرن السابع - علاقات كافية لتؤدي إلى تحالف في الحرب

وتعديل الفنون المحلية - فمن الطبيعي أن نجدها بعد بضع سنوات متحالفة مع ليديا بدلاً من ميديا.

القسم 8. فريجيا

عندما أجرينا آخر مسح لآسيا الصغرى ككل، كانت في معظمها تحت سيطرة قوة مركزية في فريجيا. لم تعد هذه القوة موجودة الآن، وحلت محلها قوة أخرى، تقع على نقطة أقرب إلى الساحل الغربي. تجدر الإشارة، بالمناسبة، إلى كيف انتقلت السيادة الأناضولية تدريجيًا من الشرق إلى الغرب - من حوض هاليس في شمال كابادوكيا، حيث كان أصحابها، بشكل عام، في نفس المجموعة الثقافية مع شرق بلاد ما بين النهرين، إلى الحوض الأوسط لسانغاريوس، حيث غيّرت التأثيرات الغربية الثقافة المحلية بشكل كبير (إذا جاز لنا الحكم من خلال بقايا الفن والكتابات). والآن وصلت أخيرًا إلى وادي هيرموس، الذي ينفث أنفاس بحر إيجة.

مهما كان الشرق يتعافى في المستقبل، فإن شبه جزيرة الأناضول كانت تميل أكثر فأكثر نحو الغرب، وأصبحت سيادتها تعتمد على الاتصال بالتأثير الحيوي للهيلينية، بدلاً من الارتباط بقلب غرب آسيا. يظهر ملكٌ من مملكة موشكي، ميتا، لأول مرة في سجلات المملكة الآشورية الجديدة معارضًا لسرجون، عندما حاول الأخير، في بداية حكمه، توسيع نطاق نفوذه، إن لم يكن إمبراطوريته الإقليمية، إلى ما وراء جبال طوروس ليشمل إمارتي كوي وتابال؛ ويبدو أن ميتا نفسه كان متحالفًا مع كركميش في الثورة التي انتهت بحصارها والاستيلاء عليها نهائيًا عام 717 قبل الميلاد. وكما ذُكر في الفصل السابق، من المعتاد ربط هذا الملك بأحد هؤلاء "الفريجيين" المعروفين لدى الإغريق باسم ميداس - ويفضل أن يكون ابن من غورديوس الأول، الذي خُلِّدت ثروته وسلطته في الأساطير. إذا صحّ هذا التعريف، فعلينا أن نتصور فريجيا في نهاية القرن الثامن مهيمنةً على جميع أنحاء آسيا الصغرى تقريبًا، سواءً بحكم مباشر أو غير مباشر؛ ومستعدةً لمقارعة أقوى قوة في آسيا (وإن لم تُكلَّل بالنجاح في نهاية

المطاف)؛ ومطالبةً بمصالح حتى خارج شبه الجزيرة. استعان بيسيريس، ملك كركميش، بميتا حليفًا له، إما لأن موشكي آسيا الصغرى كان في مكان أسلافه، حاتي كابادوكيا، أو لأنه كان هو نفسه من نسل موشكي. لا شك في أن الملك الذي استُدعي بهذه الطريقة كان ملك كابادوكيا. أما ما إذا كان ملكًا لفريجيا أيضًا، أي أنه كان ميداس بن غورديوس، فهو، كما ذُكر سابقًا، أمرٌ أقل يقينًا. لا تُشير علاقات ميتا بكوي وتابال وكركميش، في حد ذاتها، إلى أن مقر سلطته كان في أي مكان آخر غير شرق آسيا الصغرى، حيث بقي موسشي حتى عصور لاحقة: ولكن، من ناحية أخرى، فإن وجود نقوش بالخط الفريجي المميز في إيوك، شرق نهر هاليس، وفي تيانا، جنوب شرق صحراء الأناضول الوسطى، يُشير إلى أن خيوط السلطة الفريجية امتدت في وقت ما إلى كابادوكيا ونحو أرض موسشي اللاحقة.

يجب أيضًا الاعتراف بأن روعة الآثار الصخرية الباقية بالقرب من العاصمة الفريجية تتفق مع كونها مركزًا لإمبراطورية كبيرة جدًا، ولا تتفق مع كونها أقل من ذلك. أعظمها، قبر الملك ميداس (ابن أتيس وليس غورديوس)، وله واجهة صخرية يبلغ ارتفاعها حوالي مئة قدم، منحوتة على سطح أملس نُقش عليها نقش هندسي متقن. عند أسفلها باب وهمي، بينما فوق الستارة الحجرية الضخمة، نُحتت الصخرة على شكل جملون مثلث الشكل يليق بمعبد يوناني، ونُقش عليها نقش طويل بمجموعة متنوعة من أقدم الأبجديات اليونانية. يوجد العديد من المقابر الصخرية الأخرى ذات الحجم الأصغر، ولكن بتصميم وزخرفة مماثلين، في المنطقة المحيطة بالموقع المركزي، وأخرى تُظهر نقوشًا بارزة لشخصيات بشرية وأسود، وهذه الأخيرة ذات أبعاد هائلة على واجهتين شهيرتين. عندما نُحتت هذه، كان الفن الآشوري في المملكة الحديثة معروفًا بوضوح في فريجيا (ربما في أوائل القرن السابع)، ويصعب تصديق أن أولئك الذين صنعوا هذه الأعمال العظيمة تحت التأثير الآشوري قد مروا مرور الكرام في السجلات الآشورية المعاصرة. لذلك، ربما يتعين علينا الاعتراف بأنهم هم نفس هؤلاء الموشكي الذين تبعوا قادة ميتا لخوض معركة ضد ملوك نينوى العظام من سرجون إلى آشور بانيبال.

لا شك في كيفية انتهاء مملكة فريجيا. تشهد السجلات الآشورية على أن الغيمرايين أو الكيميريين، وهم شعب سكيثي هندو-أوروبي، ورثوا اسمهم عن القرم التتارية، وشبه جزيرة القرم الحالية، اجتاحوا جنوبًا وغربًا حوالي منتصف القرن السابع، وتروي السجلات اليونانية كيف استولوا على عاصمة فريجيا ونهبوها، وكيف أعدموا أو أجبروا آخر ملوكها ميداس على الانتحار.

القسم 9. ليديا

لا بد أنه في ساعة تلك الكارثة، أو قبلها بقليل، تخلى أمير ميرمناد من ساردس، الذي يُدعى غوغو من قِبل الآشوريين وجيجيس من قِبل اليونانيين، عن أي ولاء قد يكون يدين به لفريجيا،

وبدأ يُعلي من شأن بيته وأرضه في ليديا. كان مؤسس سلالة جديدة، إذ يبدو أنه كان من نبلاء البلاط، ثم ارتقى إلى العرش بفضل أحداثٍ مختلفة، وإن كانت جميع الروايات قد تضمنت بعض المؤامرات مع ملكة سلفه. يقول أحد المؤرخين إنه انتصر بمساعدة الكاريين، ولعله يُثبت ذلك؛ إذ يبدو أن جيجيس نفسه هو من لفت انتباه بسماتيك ملك مصر، بعد بضع سنوات، إلى المرتزقة الكاريين. وبعد أن التقى جيجيس بجيش الكيميريين وصدهم دون مساعدة آشور بانيبال ملك آشور، الذي لجأ إليه دون جدوى، تحالف مع المتمرد المصري الذي كان قد أسس لتوه سلالة سايت، وشرع في توسيع حدوده بمهاجمة اليونانيين المزدهرين في غربه. لكنه لم ينجح إلا ضد كولوفون وماغنيسيا على نهر المايندر، في المناطق الداخلية، وفشل أمام سميرنا وميليتس، اللتين كان من الممكن تزويدهما بالمؤن من أساطيلهما، وربما كان تحت تصرفهما نسبة أكبر من أولئك "القراصنة الأيونيين" المحاربين الذين كانوا يهاجمون بلاد الشام منذ فترة طويلة. خلال فترة حكم طويلة، يقدرها هيرودوت (وهو مؤرخ غير دقيق) بثمانية وثلاثين عامًا، كان لدى جيجيس الوقت الكافي لتأسيس سلطته وضمان سيطرة الليديين على التجارة البرية؛ وعلى الرغم من أن جحافل كيمرية جديدة، مدفوعة، كما يقول هيرودوت، من قبل السكيثيين (ربما لم يكونوا منفصلين عن الميديين الذين كانوا يتجهون غربًا آنذاك، كما نعلم)، قد نزلت من الشمال، وهزمته وقتلته، ونهب الجزء غير المحصن من عاصمته، واجتاحها لنهب ما استطاع من الأرض.

كما في البحر، دون أن يتوقف ليتخذ أماكن مسيّجة، تمكن ابنه أرديس، الذي صمد في قلعة ساردس، وخضع لآشور بانيبال، من استئناف الهجوم على الإغريق. بعد أن أدى هجوم آشوري على جناح أو مؤخر الكيميريين إلى مقتل زعيم البرابرة في تلال قيليقية، وتشتيت العاصفة، زحف الليديون عبر نهر المايندر مرة أخرى. استولى على بريينى، ولكن مثل سلفه وخليفته، فشل في انتزاع أغلى غنيمة على الساحل اليوناني، مدينة ميليتوس الغنية عند مصب نهر المايندر. حتى تاريخ هذا المسح، وعلى مدى نصف قرن قادم، لم تكن فتوحات ملوك ليديا في أيونيا وكاريا سوى غزوات نهب وابتزاز، مثل غزوات بلاد ما بين النهرين السابقة. قد تؤدي هذه الغزوات إلى الاستيلاء على مدينة ونهبها هنا وهناك، ولكن ليس إلى السيطرة عليها. يخبرنا هيرودوت اليوناني الكاري، المولود بعد قرن من الزمان تقريبًا، صراحةً أنه حتى عهد كروسوس، أي إلى عهد أبيه، كان جميع اليونانيين محتفظين بحريتهم: وحتى لو كان يقصد بهذا القول، وربما يقصد، أنه لم يخضع أي يوناني سابقًا للعبودية النظامية، فإنه لا يزال يدعم وجهة نظرنا: لأنه، إذا حكمنا من خلال الممارسة الآشورية، فإن استعباد الشعوب المهزومة لم يبدأ إلا عندما ضُمت أراضيهم إلى إمبراطورية إقليمية. لا نسمع شيئًا عن حكام ليديين في المدن الساحلية اليونانية، ولا نجد أي أثر لـ"فترة ليدية" في طبقات المواقع الأيونية والكارية التي تم التنقيب عنها. لذا، يبدو أن الليديين والإغريق عاشوا حتى عام 600 قبل

الميلاد وما بعده في تواصل مضطرب، حيث حافظ كل شعب على وحدته، وتعلم عن الآخر في المدرسة الدولية الوحيدة التي عرفها الإنسان البدائي، وهي مدرسة الحرب.

يُشير هيرودوت إلى أن المدن اليونانية في آسيا، وفقًا للاعتقاد السائد في عصره، كانت مدينة بشدة لليديا لحضارتها. وربما يكون الجزء الأكبر من هذا الدين (إن وُجد) قد تم تكبده بعد عام 600 قبل الميلاد؛ ولكن لا بد أن بعض العناصر المكونة للحساب كانت أقدم - سك النقود، على سبيل المثال. ومع ذلك، هناك الكثير مما يُكتب على الجانب الآخر من الدفتر، أكثر مما عرفه هيرودوت، وأكثر مما يمكننا تقديره حتى الآن. لم يُعثر في أرضهم التي لم تُستكشف جيدًا إلا على آثار قليلة جدًا من فنون الليديين الأوائل، وقليل جدًا من أدوات استخدامهم اليومي، مما يجعلنا نحدد ما إذا كانوا يدينون بالفضل للغرب أم للشرق. ومع ذلك، فقد علمنا من الحفريات الأمريكية في ساردس يقينًا أن خطهم كان من النوع الغربي، أقرب إلى الخط الأيوني منه إلى الخط الفريجي؛ ولأن لغتهم احتوت على عدد كبير من الكلمات الهندو-أوروبية، فلا ينبغي، في المجمل، اعتبار الليديين شعبًا شرقيًا. مع أن الأسماء التي أطلقها هيرودوت على ملوكهم الأوائل هي أسماء من بلاد ما بين النهرين، وقد تُذكرنا بعلاقة سياسية ما مع الشرق الأقصى في حقبة زمنية بعيدة - ربما علاقة أور الخارجية، التي يبدو أنها امتدت إلى كابادوكيا - إلا أن جميع الأسماء الملكية وغيرها من الليدية المسجلة لاحقًا هي أسماء أناضولية بامتياز. على أي حال، لا بد أن أي صلة ببلاد الرافدين قد طواها النسيان منذ زمن طويل قبل أن يتمكن كتبة آشور بانيبال من ذكر دعاء "غوغو ملك لودي" على أنه قادم من شعب وأرض لم يسمع بها سيدهم ولا أسلافه. ومع استمرار أعمال التنقيب في ساردس ومواقع أخرى في ليديا، ربما نجد أن الحضارة الأرقى في البلاد كانت نموًا متأخرًا نسبيًا، يعود تاريخه بشكل رئيسي إلى صعود حوريات البحر، وأن آثارها ستظهر تأثير المدن الهيلينية التي بدأت قبل عام 600 قبل الميلاد بقليل، وبلغت ذروتها في القرن الذي تلا ذلك التاريخ.

لا نعرف شيئًا عن مدى قوة ليديا شرقًا، إلا إذا كانت الاقتراحات المستندة بالفعل إلى فقرة هيرودوت المتعلقة بلقاء ألياتس الليدي مع كياخاريس الميدي على نهر هاليس، بعد سنوات من تاريخ مسحنا الحالي، مبررة تمامًا. إذا كان الأمر كذلك، فيمكن افتراض أن نطاق نفوذ ليديا كان يشمل كيليكيا في الجنوب الشرقي، ولا بد أن مصالحها كانت متعلقة بكابادوكيا في الشمال الشرقي. ومن غير المستبعد أن تكون سلالة ميرمناد قد ورثت معظم ما كان يملكه ملوك فريجيا قبل الهجوم الكيميري؛ وربما كان ذلك بسبب احتلال ليدي قاهر للهضبة شرقًا حتى هاليس وسفح جبال طوروس، مما أدى إلى أن يصبح الموشكي ممثلين في العصور اللاحقة فقط من قبل الموسكي في غرب أرمينيا، بينما أصبح رجال تابال ممثلين من قبل تيباريني النائيين وغير المهمين على حد سواء.

القسم 10. المدن اليونانية

سبق أن ذكرنا شيئًا عن المدن اليونانية على ساحل الأناضول. تقع الفترة العظيمة للمدن القديمة كمجتمعات حرة ومستقلة بين مطلع القرن الثامن ونهاية القرن السادس. وهكذا كانت في أوج ازدهارها حوالي عام 600. وبحلول بتأسيس المستعمرات الثانوية (يُقال إن ميليتوس وحدها أسست ستين مستعمرة!) وإقامة مراكز تجارية، دفعوا بالثقافة الهيلينية شرقًا حول شواطئ شبه الجزيرة، إلى البنطس شمالاً وكيليكيا جنوبًا. في نظر هيرودوت، كان هذا العصر السعيد الذي "كان فيه جميع الهيلينيين أحرارًا" مقارنةً بتجربته الشخصية مع الهيمنة الفارسية. يخبرنا أن ميليتوس كانت آنذاك أعظم المدن، سيدة البحر؛ ولا شك أن بعضًا من أشهر مواطنيها، أناكسيماندر، وأنكسيمانس، وهيكاتيوس، وطاليس، ينتمون تقريبًا إلى هذا العصر، وكذلك أسماء شهيرة بنفس القدر من المجتمعات اليونانية الآسيوية الأخرى، مثل ألكايوس وسافو من ليسبوس، وميمنرموس من سميرنا أو كولوفون، وأناكريون من تيوس، وغيرهم الكثير. هذه الحقيقة بالغة الأهمية، لأن الدراسات والأنشطة الأدبية المشابهة لدراساتهم لم تكن لتوجد إلا في مجتمعات متحضرة وحرة ومرفهة، حيث كانت الحياة والثروة في أمان.

ومع ذلك، إذا كانت الثقافة الرائعة لليونانيين الآسيويين في مطلع القرن السادس لا تقبل أدنى شك، فإن القليل جدًا من الأشياء المادية التي أنتجتها فنونهم قد استُعيدت لنراها اليوم. لقد نقّب الألمان في ميليتوس على نطاق واسع للغاية، دون أن يُكشف لهم عن أي شيء جدير حقًا بعصرها العظيم، أو حتى الكثير مما يمكن الإشارة إليه في تلك الفترة، باستثناء شظايا من فخار مطلي فاخر. يبدو أن المدينة الواقعة عند مصب أكبر وأكبر وادٍ، والذي يخترق آسيا الصغرى من الساحل الغربي، كانت بالغة الأهمية في العصور اللاحقة، وتعرضت لعقاب شديد للغاية، وعمليات إعادة بناء شاملة للغاية، لدرجة أن بقايا عظمتها السابقة لم يبقَ منها إلا في الحفر والزوايا. لقد زودتنا أفسس بمزيد من الكنوز القديمة، من الرواسب المدفونة تحت عمليات إعادة بناء ضريح أرتميس العظيم لاحقًا؛ ولكن هنا أيضًا، لم يُضف موقع المدينة نفسه، على الرغم من استكشافه طويلًا من قِبل النمساويين، إلى هذا المخزون. ولعل أطلال المباني الرومانية العظيمة التي تعلو طبقاتها السابقة كانت عائقًا كبيرًا أمام المنقبين وغنيمة مغرية للغاية. وقد احتفظت لنا برانشيداي، بمعبد أبولو والطريق المقدس، ببعض التماثيل القديمة، وكذلك فعلت ساموس وخيوس.

لدينا أعمال ذهبية قديمة ومزهريات مطلية من رودس، وتوابيت مطلية من كلازوميناي، وفخار مطلي مصنوع هناك وفي أماكن أخرى في آسيا الصغرى، على الرغم من أن معظمها عُثر عليه في الخارج. لكن كل هذا لا يُمثل سوى تمثيل ضعيف جدًا للحضارة اليونانية الآسيوية التي تعود إلى عام 600 قبل الميلاد. ولحسن الحظ، لا تزال التربة تحتوي على أكثر بكثير مما استُخرج منها. باستثناء ميليتوس وأفسس، لا تزال مواقع المدن اليونانية القديمة على ساحل الأناضول أو بالقرب منه تنتظر منقبين سيبحثون في أعماق كل شيء ويحفرون بشكل

منهجي على مساحة واسعة؛ بينما تنتظر بعض المواقع أي تنقيب، باستثناء ما يمارسه الفلاحون الناهبون.

في شبابهم الحر، مارس اليونانيون الآسيويون المفهوم اليوناني للدولة المدينة، دولة الحكم الذاتي، المكتفية ذاتيًا، والمنعزلة، على أكمل وجه. وقد نتج عن ذلك وجود جماعي حيوي ومثير للاهتمام يُنمّي الحضارة كما تُنمّي الدفيئة النباتات؛ لكنها لم تكن ديمقراطية، وكان لديها شعور ضئيل بالمواطنة - وهي عيوب سيدفعون ثمنها غاليًا في المستقبل القريب. على الرغم من ارتباطهم بالاحتفالات المشتركة، مثل رابطة المدن الأيونية الاثنتي عشرة، ومهرجان هيكسابوليس الدوريان في الجنوب الغربي، والذي أدى إلى نقاش حول المصالح السياسية المشتركة، إلا أن غريزة انفصالية، عززتها الحدود الجغرافية القوية التي قسمت معظم الأراضي المدنية، كانت تتجدد باستمرار. وكانت الغريزة نفسها تحكم تاريخ اليونان الأوروبية أيضًا. ولكن بينما تم تجنب الكارثة، التي ستترتب عليها في النهاية، هناك لفترة طويلة بسبب الوضع الانعزالي للمنطقة اليونانية الرئيسية ككل وغياب أي قوة أجنبية قوية على حدودها القارية، فإن الكارثة كانت وشيكة على اليونان الآسيوية منذ اللحظة التي أصبحت فيها دولة إمبراطورية مقيمة على الحافة الغربية للهضبة الداخلية. لقد ظهرت هذه الدولة الآن ورسخت مكانتها؛ ولو كان لدى اليونانيين في آسيا عيون تقرأ، لكان الأمر واضحًا على جدرانهم في عام 600 قبل الميلاد. في هذه الأثناء، توافد التجار الآسيويون على شرق هيلاس، وتغلغل الهيلينيون وتأثيرهم في آسيا. واعتمدت الأيدي التي نحتت بعض العاجيات التي عُثر عليها في أقدم آثار أرتيميسيوم في أفسس على تقاليد فنية مستمدة في نهاية المطاف من نهر دجلة. وكذلك فعل الحدادون الذين صنعوا مجوهرات رودس، وكذلك الفنانون الذين رسموا أواني ميليسيا وتوابيت كلازومينا. وعلى الجانب الآخر من الدفتر (مع أن ثلاثة أجزاء من صفحته لا تزال مخفية عنا)، يجب أن ننسب الفضل إلى اليونانية في كتابة ليديا، وجملونات فريجيا الصخرية، وأشكال وتصاميم العديد من الأواني.

عُثر على قطعٍ وأدواتٍ صغيرةٍ من الطين والبرونز في تلال غورديان وفي مواقع أخرى على الهضبة الغربيةِ من ميسيا إلى بامفيليا. عُرف رجال "جاوان"، الذين سيطروا على البحر السوري لستة وثلاثين قرنًا، لدى حزقيال كعمالٍ ماهرين في المعادن؛ وفي قبرص، التقوا لفترةٍ طويلةٍ بثقافة رجال الشرق وامتزجوا بها.

أُلمح في بداية هذا الفصل إلى أنه في عام 600 قبل الميلاد، ستُعتبر التغيرات الاجتماعية في الشرق غير متناسبةٍ مع التغيرات السياسية؛ ويبدو أنها كانت كذلك في المجمل.

سقطت الإمبراطورية الآشورية في وقتٍ متأخرٍ جدًا بحيث لم يحدث أي تغييرٍ كبيرٍ في الحياة في منطقتها، وفي الواقع، كان الجزء الأكبر من تلك المنطقة لا يزال يُدار من قِبل مملكةٍ

كلدانيةٍ على غرار الإمبريالية السامية الراسخة. وسواءٌ كان مركز هذه الحكومة في نينوى أم في بابل، فلا بد أن يكون قد أثر على السكان الخاضعين لها قليلاً. لم تكن هناك قوة دينية جديدة قد دخلت الشرق القديم، إلا إذا اعتُبر الميديون قوةً بفضل زرادشتيتهم. ولعله لم يُؤثر على الدين كثيرًا في مرحلته الأولى من الغزوات والفتوحات. وقد بدأت بالفعل التجربة العظيمة، التي حوّلت اليهود من سكان مرتفعات تافهين وبربرية إلى شعب مثقّف وتجاري وعالمي ذي إمكانيات هائلة، ولكن لجزءٍ فقط من العرق، وحتى الآن دون نتيجة واضحة. يُعدّ الغزو الأول للإيرانيين بقوة، وذلك التغلغل البطيء للقبائل الهندو-أوروبية من روسيا، والذي كان من شأنه أن يُطوّر الشعب الأرمني في التاريخ، من أهمّ علامات التغيير القادم التي لوحظت بين عامي 800 و600 قبل الميلاد، باستثناء واحد، سيتضح معناه الكامل في دراستنا القادمة. كان هذا هو التوجه شرقًا لليونانيين.

٤ .الشرق: في عام ٤٠٠ قبل الميلاد.

مع اقتراب القرن الخامس من نهايته، انكشف الشرق أخيرًا في ضوء التاريخ الذي كتبه الإغريق. من بين الشعوب التي نعرف أعمالها الأدبية، كان هؤلاء أول من أبدوا فضولًا تجاه العالم الذي عاشوا فيه، ووعيًا كافيًا بفضول الآخرين لتسجيل نتائج بحثهم. قبل تاريخنا الحالي، استفسر الإغريق كثيرًا عن الشرق، وليس عن الشرقيين وحدهم. فقد صعد رجال دينهم، عسكريين ومدنيين، وعلماءهم، وأدبائهم، وتجارهم الذين لا يُحصى عددهم، بل وحتى جنودهم بالآلاف، إلى آسيا الداخلية وعادوا. وقد استقبل قادة الأثينيين، سولون وهيبياس وثيميستوكليس، في البلاطات الشرقية أو رافقوا ملوك الشرق إلى الحرب، وكان ألكيبياديس، الذي يفوقهم شهرة، قد عاش مؤخرًا مع حاكم فارسي. كان الأطباء اليونانيون، ديموسيدس الكروتوني، وأبولونيدس الكوسي، وكتسياس الكنيدوسي، قد خدموا ملوك وملكات بلاد فارس في قصورهم. أما هيرودوت الهاليكارناسوس، فقد زار بابل، وربما جزءًا كبيرًا من سورية، بالتأكيد؛ وسكن كتسياس في سوسة وجمع ملاحظات لتاريخ الإمبراطورية الفارسية؛ وجاب زينوفون الأتيكي البحر الأبيض المتوسط إلى نهر دجلة، ومنه إلى البحر الأسود، وسار معه أكثر من عشرة آلاف يوناني. ولم تبق أعمال هؤلاء الأدباء الثلاثة، كليًا أو جزئيًا، حتى عصرنا فحسب، بل حُفظت أيضًا العديد من الملاحظات عن الشرق كما كان قبل عام 400 قبل الميلاد، في مقتطفات وتفسيرات وملخصات لمؤلفين لاحقين. ولا يزال لدينا بعض الوثائق الأثرية التي نعتمد عليها. رغم أن السجلات المسمارية للإمبراطورية الفارسية أقل وفرة من تلك الخاصة بالمملكة الآشورية اللاحقة، إلا أنها تتضمن نقوشًا تاريخية لا تُقدر بثمن، مثل تلك التي نقشها داريوس، ابن هيستاسبيس، على صخرة بهستون. وهناك أيضًا نصوص هيروغليفية وهيراطيقية وديموطيقية من مصر الفارسية؛ ونقوش من سوريا السامية وبعض النقوش من اليونان القديمة؛ والعديد من المواد الأثرية المتنوعة الأخرى من أنحاء مختلفة من الشرق، والتي، حتى لو لم تكن مكتوبة، يمكن أن تُطلعنا على المجتمع والحياة المحلية.

القسم 1. تحرك الإغريق شرقًا

كان الإغريق يتجهون شرقًا لفترة طويلة. منذ أكثر من ثلاثمائة عام، كما هو موضح في الفصل السابق، أصبحوا مصدر رعب في أقصى بلاد الشام. وقبل أن يمر قرن آخر، وجدوا طريقهم إلى مصر أيضًا. استُخدم الإغريق في البداية كمرتزقة لدعم ثورة أهلية ضد آشور، وظلوا في وادي النيل ليس للقتال فحسب، بل للتجارة أيضًا. وقد شجع جيغس الليدي أول تعريف لهم بالفرعون الصاوي، بسماتيك، لتحقيق غاياته الخاصة، إلا أن التطور الأول لنفوذهم الاجتماعي في مصر كان بفضل مشروع ميليتوس في إنشاء مصنع على أدنى مجرى نهر كانوب. وقد ساهم هذا الموقع، إلى جانب معسكرين دائمين للمرتزقة الإغريق، أحدهما في

تحفنحيس لمراقبة التقدم من آسيا، والآخر في ممفيس للإشراف على العاصمة والحفاظ على الطريق إلى صعيد مصر، في إدخال الحضارة الأيونية إلى الدلتا في القرن السابع. في الواقع، تعتمد معرفتنا، حتى يومنا هذا، بأقدم أنواع الفخار المطلي الفاخر في إيونيا وكاريا، إلى حد كبير على شظايا مزهرياتهما المستوردة إلى مصر، والتي عُثر عليها في تحبانحيس وممفيس، ومستعمرة يونانية أخرى، هي نوكراتيس، التي تأسست بعد ذلك بقليل (كما سيُذكر لاحقًا) لتحل محل المصنع الميليسي الأصلي.

ومع أن تلك المزهريات الأجنبية نفسها، بزخارفها التي تصور شخصيات عارية، والتي أثارت استياء المصريين المبتذلين، لم تتجاوز المستوطنات اليونانية (مثل مومسات نوكراتيس اليونانيات، اللواتي ربما لم يُعجبن إلا سكان سايتس الأكثر عالمية)، إلا أن فنهن أثّر بلا شك على الفنون الراقية في العصر السايتيّ، مُبشّرًا بنهضة فنية استمرت سماتها المتمثلة في الرقيّ المفرط والدقة المتناهية، لتتعزز في العصر البطلمي بتدفق جديد من الثقافة الهيلينية. ٣٨

بلغت فائدة الإغريق في مصر السفلى، أو خطورتهم - أو على الأقل كثرة عددهم - حدًا جعلهم يُخصصون محمية لهم بجوار مدينة بيبمرو المصرية، وإلى هذه المدينة وحدها، وفقًا لهيرودوت، سُمح للقادمين الجدد من البحر بالتوجه إليها. سُميت هذه الضاحية الأجنبية لبيبمرو ناوكراتيس، وأسست تسع مدن لليونانيين الآسيويين ملاذًا مشتركًا هناك. كما كان للمجتمعات البحرية الأخرى من نفس العرق (وربما الأقوى، إذ ذُكرت ميليتوس من بينها) ملاذاتها الخاصة وأماكنها الخاصة. وقد جاء الإغريق إلى مصر للإقامة. وقد علمنا من بقايا ناوكراتيس أنه طوال فترة الحكم الفارسي، التي حلت محل الحكم الصاوي قبل نهاية القرن السادس، استمر استيراد منتجات أيونيا وأتيكا وإسبرطة وقبرص وغيرها من المراكز الهيلينية. كان المكان يعج بالحياة عندما زار هيرودوت مصر، واستمر في ذلك.

ازدهرت حتى سيطر العرق اليوناني على جميع الأراضي، وتربع على عرش الهيلينية في الإسكندرية على البحر نفسه.

القسم 2. الحمالون الفينيقيون

ولم يقتصر التعارف بين الشرق والغرب على المستكشفين والمستوطنين اليونانيين في كيليكيا، والمرتزقة والتجار والمحظيات اليونانيين في دلتا النيل. فقد نشطت وكالات اتصال أخرى في جلب نماذج بلاد الرافدين إلى فناني المدن الأيونية والدورية في آسيا الصغرى، ونماذج أيونية إلى بلاد الرافدين وسوريا. وتتجلى النتائج جليةً، من جهة في نسيج وتصميم العاجيات القديمة والمجوهرات وغيرها من الأشياء التي عُثر عليها في أرتميسيوم القديم في أفسس، وفي زخرفة الفخار المرسوم المنتج في ميليتس؛ ومن جهة أخرى، في العاجيات المنحوتة من القرن التاسع التي عُثر عليها في كالح على نهر دجلة. لكن العمليات التي أدت إلى هذه النتائج ليست

واضحة تمامًا. فإذا كان الفينيقيون والليديون هم فاعلو أو حاملو تلك التأثيرات المتبادلة، فلا يمكننا بعدُ أن نحدد بثقة مسؤولية كلٍّ من هذين الشعبين عن النتائج، أو أن نجزم بأنهما كانا الفاعلين الوحيدين، أو مستقلين عن وسطاء آخرين على اتصال مباشر مع أحد الطرفين.

لقد ابتعد الفينيقيون عن هذا المجال منذ آخر مرة نظرنا إليهم فيها. فبتأسيس قرطاج على بُعد أكثر من منتصف الطريق نحو أعمدة هرقل، أكملت مدينة صور احتلالها لعدد كافٍ من الموانئ الأفريقية، بعيدًا عن متناول مصر، وخارج نطاق النفوذ اليوناني، لتستحوذ على تجارة حوض غرب البحر الأبيض المتوسط بحلول نهاية القرن التاسع. ومن خلال مستوطنات ثانوية في غرب صقلية وسردينيا وإسبانيا، حوّلت هذا البحر لفترة من الزمن إلى ما يشبه بحيرة فينيقية. لم يسبقها في ذلك أي منافس جدي، ولم يبرز أي منافس لمنافستها على احتكارها حتى استفزت روما، بعد زمن طويل من تاريخنا. فشلت المستعمرات اليونانية في صقلية وإيطاليا، التي كانت تتطلع غربًا، في مواجهتها في البداية، وسرعان ما خرجت من المنافسة؛ ولم يكن أداء المراكز الهيلينية المعزولة على الشواطئ الأخرى أفضل حالًا. من ناحية أخرى، في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، على الرغم من أنه كان موطنها، لم تنجح صور قط في ترسيخ تفوقها التجاري، بل على حد علمنا، لم تحاول بجدية ترسيخه. كان هذا المجال حكرًا على بحارة بحر إيجة، وكان كذلك منذ القدم في ذاكرة الفينيقيين. كان الكريتيون المينويون المتأخرون ورجال أرجوليس، والمستكشفون الآخيون، والقراصنة الأيونيون، والسفن التجارية المسلحة الميليزية، قد انصرفوا عنها تباعًا باستثناء سفن صيدا وصور المنعزلة والمسالمة، وحتى قرب ساحل قبرص، ظل غريبًا على الفينيقيين لقرون بعد أن ازدهرت صور. في القصص الهوميرية، تظهر سفن الصيداويين، وإن كانت معروفة، إلا أنها نادرة الظهور، كما أن أساطير الإغريق المبكرة الأخرى، التي تذكر زيارات الفينيقيين للسواحل الهيلينية، تُشير إلى أنها كانت ظواهر غير عادية، أثارت فضولًا محليًا كبيرًا وظلت محفورة في الأذهان لفترة طويلة. غرابة البحارة الفينيقيين، وسحر حمولاتهم غير المألوف - 39 كانت هذه هي الانطباعات التي تركتها الزيارات الأولى للسفن الفينيقية على التاريخ اليوناني.

ومع ذلك، فمن المؤكد أنهم كانوا يقومون بمثل هذه الزيارات من وقت لآخر. إن الحُلي المصرية الصغيرة، التي كثر وجودها في الطبقات الهيلينية من القرنين الثامن إلى السادس، خير شاهد على ذلك. وهي أكثر انتشارًا في رودس، وكاريا، وإيونية، والبيلوبونيز. إلا أن التيار الرئيسي لتجارة صور كان يتجه نحو السواحل الجنوبية لشرق البحر الأبيض المتوسط لا الشمالية. كان البحارة الفينيقيون في جوهرهم جنوبيين - رجال، وإن واجهوا رياح بحر إيجة والبحر الأدرياتيكي الباردة بين الحين والآخر، رفضوا ذلك أكثر من اللازم - رجالٌ كانت شواطئ أفريقيا ومناخها الملطف بنسيم المحيط أكثر ملاءمة لهم.

ولكن، إذا كان الفينيقيون بلا شك وسطاء لنقل الثقافة المصرية إلى الهيلينيين الأوائل في كل من آسيا وأوروبا، فهل نقلوا أيضًا ثقافة بلاد ما بين النهرين؟ ليس بنفس القدر، إذا حكمنا من خلال نتائج الحفريات. في الواقع، أينما ترك التأثير الرافديني آثارًا جلية على الأراضي اليونانية، كما في قبرص وإيونية أو في كورنث وإسبرطة، غالبًا ما يكون من المؤكد أو المحتمل أن الجهة الحاملة لم تكن فينيقية. نجد أقرب أوجه التشابه مع الفن القبرصي القديم (حيث كان مدينًا للفن الآسيوي أصلًا) في الفن القيليقي والفن السوري الحثي. تحتوي الطبقات الأيونية والكارية المبكرة على القليل جدًا مما له طابع مصري، ولكن الكثير مما يمكن إرجاع إلهامه في النهاية إلى بلاد ما بين النهرين؛ وقد ألقى البحث في آسيا الصغرى الداخلية، على الرغم من عدم اكتمال نتائجه حتى الآن، الضوء على الهضبة على الكثير من التوازي مع الفن الأيوني الشرقي، والعديد من الأمثلة على المراحل السابقة في تطوره، مما يجعلنا نفترض أن التأثير الرافديني قد وصل إلى إلى أقصى شرق آسيا عبر الطرق البرية بشكل رئيسي. أما بالنسبة للمواقع الأوروبية، فبما أن استشراقها يبدو أنه مستقى من أيونيا، فقد وصل أيضًا عبر آسيا برًا.

لذلك، إجمالًا، ورغم تأكيد هيرودوت أن البحارة الفينيقيين حملوا بضائع آشورية، إلا أن الأدلة على وصول تلك البضائع إلى الغرب ضئيلة للغاية، وكذلك على وجود تجارة مباشرة كبيرة بين الفينيقيين وبلاد ما بين النهرين ضئيلة. ربما كانوا مسؤولين عن القطع المصرية الصغيرة والمصرية التي عثر عليها منقبو كركميش وساكجيجوزي في طبقات تعود إلى القرنين التاسع والثامن؛ ولكن الأرجح أن نقل قطع مماثلة شرقًا عبر نهر الفرات كان بأيدي الحثيين أكثر منه بأيديهم. كان التأثير النيلي الأقوى الذي أثر على فن بلاد ما بين النهرين واضحًا خلال النصف الأخير من المملكة الآشورية الجديدة، عندما لم تكن هناك حاجة إلى وسطاء أجانب للحفاظ على تواصل نينوى مع إقليمها مصر.

ومن الواضح، إذن، أنه لم يكن من خلال الفينيقيين أن تعلم الإغريق معظم ما عرفوه عن الشرق في عام 400 قبل الميلاد. فقد لعب وسطاء آخرون دورًا أكبر، وكانت جميع الاتصالات تقريبًا تتم عبر الجسر البري عبر آسيا الصغرى، وليس بحر الشام. في الجزء الأول من قصتنا، خلال الحكم الأخير لآشور في الشرق الأقصى والحكم اللاحق للميديين والبابليين في جوارها، كانت العلاقات تتم بالكامل تقريبًا عن طريق وسطاء، وكان الليديون بلا شك الأكثر نشاطًا بينهم (إذا جاز التعبير للقيليقيين). في الجزء الأخير من القصة، سيتضح أن الوسطاء قد اختفوا؛ لقد هُدمت الحواجز؛ واقترب الشرق من الغرب، وأصبح التواصل فوريًا ومباشرًا. أما كيف حدث هذا - وما هي الآلية التي جمعت اليونانيين والشرقيين في اتصال حميم كان له أعظم العواقب على كليهما - فما زال يتعين علينا أن نخبر.

القسم 3. مجيء الفرس

40

لقد رأينا بالفعل كيف شقت قوة، نمت خلف جبال الحدود في حوض دجلة، طريقها أخيرًا عبر المجاري المائية، وخرجت في السهول النهرية بنتائج كارثية على ملوك الساميين الشماليين. مع بداية القرن السادس، كانت آشور قد انتقلت إلى أيدي الميديين، الذين امتدوا عبر أرمينيا إلى آسيا الوسطى الصغرى. حتى الساميون الجنوبيون في بابل اضطروا إلى الاعتراف بالقوة المتفوقة للوافدين الجدد، وربما، إلى قبول نوع من التبعية. وهكذا، بما أن جميع بلاد ما بين النهرين السفلى، بما في ذلك معظم سوريا، كانت خاضعةً للبابليين، فقد كانت قوة، إيرانية جزئيًا، تُسيطر بالفعل على ثلثي الشرق قبل أن يظهر كورش وفارسه على الساحة. من المهم أن نضع هذه الحقيقة في الاعتبار عند ملاحظة السهولة التي تمكن بها ملك أنشان في عيلام، الذي كان غامضًا حتى ذلك الحين، من الاستيلاء على كامل الإمبراطورية السامية، والسرعة التي ظهرت بها قواته في أقصى غرب آسيا الصغرى على حدود الإغريق أنفسهم. تحالف نبوخذنصر مع الملك الميدي وأطاعه، وساعده في معركة هاليس عام 585 قبل الميلاد على الترتيب مع ليديا لتقسيم شبه جزيرة آسيا الصغرى بموجب شروط "الملكية المطلقة" - وهذا هو الموقف المهم الذي سيُهيئنا لنجد كورش، بعد أقل من نصف قرن، سيدًا على بابل والقدس وسردس. ما هي الأحداث التي وقعت في الشرق الأقصى بين مختلف مجموعات الإيرانيين أنفسهم وحلفائهم السكيثيين، والتي أدت إلى قيام هذا الملك، حاكم إحدى مقاطعات عيلام، والذي يُشكك في ادعائه بانتمائه إلى أي من تلك المجموعات، بتوحيد جميع الإيرانيين، سواءً من الجنوب أو الشمال، تحت حكمه الواحد، في قوة هجومية جبارة، لا نعلم. تُصوّر القصص المتداولة بين اليونانيين، والتي رواها هيرودوت وكتسياس، كورش على أنه فارسي في كل الأحوال، ولكن إما كحفيد لملك ميدي (وإن لم يكن وريثه الطبيعي) أو كأحد موظفي بلاطه. ما كان على اليونانيين تفسيره (وكذلك فعلنا) هو الاختفاء اللاحق لملوك إيران الشمالية من الميديين واندماج رعاياهم مع الإيرانيين الفرس في ظل سلالة جنوبية. وما لم يعرفه الإغريق، لكننا نعرفه، من النقوش المسمارية المعاصرة لعصر كورش، أو اللاحقة له بقليل، يُعقّد المشكلة؛ إذ تشهد هذه النقوش على أن كورش كان معروفًا في البداية (كما ذُكر سابقًا) بأنه ملك عيلام، ولم يُعرف إلا لاحقًا بأنه ملك فارس. يتفق كتسياس، الذي عاش في شوشان نفسها عندما كانت عاصمة فارس، مع هيرودوت في أن كورش انتزع سيادة الميديين من السلالة الأصلية بالقوة؛ لكن هيرودوت يضيف أن العديد من الميديين كانوا أطرافًا موافقة.

لا مجال لمناقشة هذه المشاكل هنا. الاحتمال، باختصار، هو التالي: تقدم جزء من المجموعة الجنوبية أو الفارسية من الإيرانيين، الذين، على عكس الشماليين، لم يكونوا ملوثين بالسكيثيين، إلى عيلام بينما كان الميديون يغزون ويضعفون الساميين.

إمبراطورية؛ وفي آنشان، عززت نفسها كقوة إقليمية واتخذت من سوسة عاصمةً لها.
وسرعان ما نشأ بعض الاستياء بين الإيرانيين الشماليين، ربما بسبب التأييد الذي أظهره ملوك الميديين لرعاياهم السكيثيين المحاربين، واستدعى الساخطون ملك آنشان. دارت رحى الصراع في وسط غرب بلاد فارس، التي كانت خاضعة لسيطرة الميديين منذ عهد والد كياخاريس، فراورتس، وعندما حُسمت بانفصال جزء كبير من جيش الملك أستياجيس، استولى كورش الآنشاني على الإمبراطورية الميدية بموافقة قسم كبير من سكان الميديين. شملت هذه الإمبراطورية آنذاك، إلى جانب الأراضي الميدية الأصلية، ليس فقط الأراضي التي غُزيت من آشور، بل أيضًا كل ذلك الجزء من بلاد فارس الذي يقع شرق عيلام. ومما لا شك فيه أن بعض الوقت قد انقضى قبل أن تعترف جميع بلاد فارس بسيادة كورش؛ ولكن، بمجرد أن أصبحت سيادته على هذه الأرض حقيقة واقعة، أصبح يُعرف بطبيعة الحال كملك للفرس في المقام الأول، وثانيًا للميديين، بينما ظل مقره في سوسة في مملكته العيلامية الأصلية. ظل العنصر السكيثي في إقليمه الميدي وما حوله غير متصالح، وفي يوم من الأيام سيواجه حتفه في حملة ضدهم؛ لكن العنصر الإيراني بقي مخلصًا له ولابنه، ولم يعبر عن استيائه من الصفقة التي عقدها إلا بعد وفاة الأخير بثورة عامة.

القسم 4. سقوط ليديا

لا بد أن كورش لم يواجه معارضة تُذكر في الأقاليم الميديية الغربية، لأننا نجده، في غضون عام أو عامين من اعتراف كل من الفرس والميديين به، ليس فقط على حدوده القصوى، نهر هاليس، بل قادرًا أيضًا على شن غارات عبره ومواجهة سلطة ليديا. وقد استفزته ليديا نفسها لهذا الإجراء. كان سقوط سلالة ميديا، التي كانت تربطها علاقة تحالف وثيقة بالبيت الملكي الليدي منذ معاهدة هاليس، كارثةً تسرع كروسوس، ملك ساردس آنذاك في مجلس ألياتس، في محاولة إصلاحها. فقد واصل بنجاح سياسة والده في توسيع نفوذ ليديا إلى بحر إيجة على حساب الإغريق الأيونيين؛ وبحكمه سيد أفسس وكولوفون وسميرنا، وشريكه المهيمن في المجال الميليزي، ضمن لليديا السيطرة على تجارة الأناضول وازدهارها، التي ربما كانت الأكثر تنوعًا وربحًا في العالم آنذاك.

أصبح الليديون وملكهم، الذين أصبحوا رمزًا للثراء والترف، شعبًا ضعيفًا بطيئ الحركة، غير مؤهلين للتعامل مع متسلقي جبال المرتفعات الحدودية البرية في بلاد فارس، كما لو كانوا يجهلون صفاتهم، إذا صحت رواية هيرودوت. استغرق كروسوس وقتًا، فأرسل مبعوثين لاستشارة العرافين من القريب والبعيد. يخبرنا هيرودوت أنه توجه إلى دلفي ثلاث مرات على الأقل، بل حتى إلى عراف آمون في الصحراء الشرقية. لا بد أنه قضى عامًا على الأقل في هذه الاستفسارات وحدها، ناهيك عن إرسال سفارة إلى إسبرطة، وربما إلى مصر وبابل. بعد أن اكتملت هذه التحضيرات، جمع الليديون جنود غرب آسيا الصغرى وانطلقوا نحو الشرق.

وجد نهر هاليس غارقًا في فيضان - لا بد أن ذلك كان في أواخر الربيع - وبعد أن أثار ضجة كبيرة لعبوره، أمضى الصيف في اجتياح موطن الحثيين القديم بفرسانه. وهكذا منح كورش وقتًا لإرسال مبعوثين إلى المدن الأيونية ليتوسل إليهم بمهاجمة ليديا من الخلف، ووقتًا للنزول بنفسه بقوة إلى مقاطعته الغربية البعيدة. استُدعي كروسوس إلى المعركة في الأيام الأولى من الخريف. كان الاشتباك غير حاسم، لكن الليديين، الذين لم يقصدوا البقاء في مرتفعات كابادوكيا القاحلة خلال فصل الشتاء، ولم يشكّوا في أن العدو سيفكر في خوض حرب أخرى قبل الربيع، عادوا على مهل إلى وادي هيرموس، ليسمعوا في ساردس نفسها أن الفرس يطاردونهم بحماس. دارت معركة أخيرة تحت أسوار العاصمة الليدية، خسرها كرويسوس؛ واستولى على المدينة السفلى ونُهبت؛ أما الملك، الذي حبس نفسه مع حراسه في القلعة، واستدعى حلفاءه لإنقاذه بعد خمسة أشهر، فقد وقع أسيرًا لدى قورش في غضون أسبوعين. كانت تلك نهاية ليديا وجميع المناطق العازلة بين الشرق واليونان. كان الشرق والغرب على تماس مباشر، وكانت نذير شؤم للغرب. رفض كورش شروط الإغريق، باستثناء الميليسيين الأقوياء، وغادر إلى الشرق مرة أخرى، تاركًا ليديا لتهدأ، وجميع مدن السواحل الغربية، الأيونية والكارية والليكية وغيرها، باستثناء ميليتوس فقط، ليخضعها نوابه.

القسم 5. الإمبراطورية الفارسية

كان على كورش نفسه أن يتعامل مع جزء من الشرق، لم يكن محتلاً من قبل الميديين، على الرغم من تحالفه وخنوعه إلى حد ما لهم، ولم ير أي سبب الآن للاعتراف بالسلالة الجديدة. هذا هو الجزء الذي كان مدرجًا في الإمبراطورية البابلية الجديدة. غزت الجيوش الفارسية بابل. هُزم نابونيدوس أخيرًا في أوبيس في يونيو 538؛ وسقطت سيبارا، وظهر قائد كورش أمام بابل نفسها واستلمها دون مقاومة في بأيدي كهنة بل مردوخ الساخطين. ويبدو أن قصة هيرودوت الشهيرة عن تسلل كورش السري عبر مجرى نهر الفرات الجاف هي ذكرى خاطئة لاستعادة المدينة لاحقًا بعد ثورة داريوس، والتي سنتناولها بمزيد من التفصيل لاحقًا. وهكذا، مُنح كورش مرة أخرى مهمة إغلاق فصل طويل من التاريخ الشرقي - تاريخ بابل الإمبراطورية. لم يجعلها عاصمة له، ولن يُفضلها أي حاكم آخر من أمراء الشرق. وإذا كان الإسكندر ينوي إحياء مكانتها الإمبراطورية، فإن خليفته، سلوقس، ما إن ضمن ميراثه، حتى تخلى عن مدينة الفرات واتجه إلى ضفاف نهري دجلة والعاصي، تاركًا إياها تنهار إلى ما هي عليه اليوم.

انتقلت إقطاعيات ملوك بابل السورية بحكم القانون إلى الفاتح؛ ولكن ربما لم يُتح لكورش نفسه فرصة أو وقت فراغ لتأمينها بحكم الأمر الواقع. يبدو أن العقد الأخير من حياته قد قضى في بلاد فارس والشمال الشرقي، مُحاولًا بشكل رئيسي الحد من العنصر السكيثي الذي هدد سلام ميديا؛ وفي النهاية، بعد أن هزم العدو وراء نهر أراكس، لاقى هناك الهزيمة والموت. لكن

قمبيز لم يُكمل عمل والده في سوريا فحسب، بل حقق أيضًا ما يُقال إنه مشروعه الإضافي بالاستيلاء على مصر وإقامة هيمنة أجنبية هناك استمرت، مع بعض الفترات، لما يقرب من مئتي عام. وبحلول نهاية القرن السادس، امتدت إمبراطورية إقليمية واحدة على كامل الشرق لأول مرة في التاريخ؛ وبعملاق ضخم، يمتد من نهر أراكس إلى أعالي النيل، ومن نهر جيحون إلى بحر إيجة، وقف الإغريق وجهًا لوجه على بوابة الغرب. قبل أن نغرق في تأمل صراع سيأخذنا إلى تاريخ أوسع، دعونا نتوقف لحظة لنتأمل طبيعة القوة الجديدة المنبثقة من الشرق، وحالة الشعوب الخاضعة لها والتي كان لها تأثير بالغ في تاريخ البشرية اللاحق. تجدر الإشارة إلى أن القوة العالمية الجديدة ليست غير سامية فحسب، ولأول مرة في تاريخ موثق، بل يحكمها أيضًا سلالة آرية نقية جدًا، أقرب صلة بشعوب الغرب من أي شعب شرقي تربطهم بها علاقات وثيقة حتى الآن. ظهر الفرس من خلف الماوراء، غير ملوثين بوحشية ألارود، وغير مقيدين بالتحيزات الدينية والتقاليد البدوية للساميين. كانوا من سكان المرتفعات ذوي قوة لا تلين، وعادات اقتصادية، وحياة زراعية مستقرة، وتماسك اجتماعي راسخ، ومفاهيم دينية روحية. ربما أيضًا، قبل انطلاقهم من الهضبة الإيرانية الشاسعة، لم يكونوا على دراية كاملة بإدارة الأراضي الشاسعة. على أي حال، مكّنهم ذكاءهم السريع من الاستفادة من نماذج التنظيم الإمبراطوري التي استمرت في الأراضي التي استولوا عليها؛ إذ بقيت آثار النظام الآشوري في ظل الحكم البابلي الجديد، وربما أيضًا في ظل الحكم الميدي. بعد ذلك، لا بد أن الخبرة التي اكتسبها قمبيز في مصر قد أثّرت في التعليم الإمبراطوري لخليفته داريوس، الذي ينسب إليه المؤرخون التنظيم النهائي للحكم الإقليمي الفارسي. منذ عهد الأخير، نجد نظامًا إقليميًا منتظمًا مرتبطًا بالمركز، وربما يكون ذلك من خلال خدمة بريدية تمر عبر طرق الولاية. تُفوّض السلطة الملكية إلى عدة مسؤولين، ليسوا دائمًا من السلالة الحاكمة، لكنهم مستقلون عن بعضهم البعض ومسؤولون مباشرة أمام سوسة: يعيش هؤلاء في مقاطعاتهم، ولكن يجب عليهم أولاً وقبل كل شيء التأكد من حصول المركز على حصة ثابتة من المال وحصة ثابتة من المقاتلين عند الحاجة. أقام الملك العظيم مساكن ملكية في مدن مختلفة من الإمبراطورية، وتردد على زيارتها؛ ولكن عمومًا، تُرك نوابه أحرارًا بشكل استثنائي في الحفاظ على سلام ولاياتهم، بل وحتى في التعامل مع جيرانهم الأجانب وفقًا لتقديرهم الخاص.

إذا قارنا النظرية الفارسية للإمبراطورية بالآشورية، فسنلاحظ خطأً فادحًا.

لم يُقرّ ملك سوسة العظيم بالتزام أكبر من أسلافه في نينوى بمراعاة مصالح من حكمهم، وتعويضهم عما أخذ. ولكن، بينما لم يكن من الممكن تصور نظرية إمبراطورية أفضل في القرن السادس قبل الميلاد، ومن المؤكد أنه لم يُعتنق أو يُطبّق أي منها في الشرق حتى القرن التاسع عشر الميلادي،

من ناحية أخرى، خففت الممارسة الإمبراطورية الفارسية من آثارها السيئة أكثر بكثير مما فعلته الآشورية. تحررًا من التقليد السامي المتمثل في الغارات السنوية، خفف الفرس من واجب الخدمة العسكرية إلى عبء محتمل، وتجنبوا الاستفزاز المستمر لجيرانهم على الحدود. وتحررًا أيضًا من الأفكار السامية التوحيدية العليا، لم يسعوا إلى فرض عقيدتهم. ونظرًا لاتساع الإمبراطورية الفارسية، وعدم مركزيتها، وضعف وسائل الاتصال فيها، لم يكن بإمكانها البقاء إلا من خلال ممارسة التسامح الإقليمي. ويبدو أن تسامحها الإقليمي قد تم نظامٌ منهجي. نعرف الكثير عن اليونانيين واليهود الذين كانوا تحت سيطرته، وفي تاريخ كليهما نغفل عن علامات الاضطهاد الديني والاجتماعي التي ميّزت الحكم الآشوري. في غرب آسيا الصغرى، أظهر السُطارفة (الحكام) أنفسهم عمومًا مُصالحين بشكلٍ فريد تجاه المشاعر الدينية المحلية، بل ومتوافقين معها شخصيًا؛ وفي يهودا، لم يُدحض أمل العبرانيين في أن يُثبت الفرس أنهم مُنقذون ومُعيدون لممتلكاتهم. بالكاد وصل إلينا صدى الغضب على رعايا بلاد فارس في زمن السلم. إذا كان حاكم المدن اليونانية الآسيوية قد خالف المشاعر الهيلينية بإصراره على حكم "الطاغية"، فإنه لم يفعل أكثر من مواصلة نظامٍ اغتنت في ظله معظم تلك المدن. من الواضح أنه لم يكن لديهم ما يشكون منه سوى غياب الحرية الديمقراطية التي، في الواقع، لم يتمتع بها بعضهم يوم استقلالهم. يبدو أن المرازبة كانوا مزودين بقوات فارسية قليلة، أو حتى معدومة، وبمساعدين فارسيين قليلين في طاقمهم الإداري. في الواقع، لا بد أن العنصر الفارسي في الأقاليم كان صغيرًا للغاية - صغيرًا لدرجة أن إمبراطورية، ضمت لأكثر من قرنين تقريبًا غرب آسيا بأكمله، لم تترك لنفسها أثرًا إقليميًا واحدًا، محفورًا على الصخر أو منحوتًا على الحجر.

القسم 6. اليهود

إذا نظرنا تحديدًا إلى اليهود - أولئك الرعايا الفارسيون الذين يشتركون بالضرورة في معظم اهتمامنا مع اليونانيين - نجد أن الحكم الإمبراطوري الفارسي ما إن ترسخت أقدامه على الإقطاع البابلي السابق في فلسطين حتى بدأ في إبطال العمل التدميري الذي قامت به أسلافه. عبثًا، كانت القدس تنتظر العون من القوة المصرية المُستعادة، فصمدت في وجه نبوخذنصر حتى عام 587. وعند الاستيلاء عليها، ازداد تشتت يهود الجنوب، الذي بدأ بالفعل بهجرات محلية إلى مصر، بشكل كبير نتيجة ترحيل أعداد كبيرة إلى بابل. ومع ذلك، في وقت مبكر، وتحديدًا عام 538، عام دخول كورش إلى بابل (نتيجة لذلك بلا شك)، بدأت عودة المنفيين إلى يهودا، وربما أيضًا إلى السامرة. وبحلول عام 520، كان عدد السكان اليهود في جنوب فلسطين قويًا بما يكفي ليُشكلوا مصدر إزعاج لداريوس، وفي عام 516، كان الهيكل قيد الترميم. وقبل منتصف القرن التالي، عادت القدس إلى مدينة محصنة، وتعزز سكانها بفضل عودة العديد من المنفيين الذين تشربوا الحضارة الاقتصادية، وكذلك تدين بابل. منذ ذلك الحين،

تطور اليهود إلى شعب تجاري دون انقطاع واضح من قِبل الحكام الفرس، الذين (مثل نحميا) قد يكونون هم أنفسهم من العرق الخاضع. وحتى لو سُمح بتزايد أعداد الساميين الآخرين، ولا سيما الآراميين، - وهي زيادات مقبولة بسهولة من قِبل شعب أصبح أقرب إلى كنيسة منه إلى أمة - فإن ذلك يظل شهادةً صارخةً على التسامح الفارسي، إذ بعد ستة أو سبعة أجيال فقط، ازداد عدد اليهود الذين كانوا في السابق غير مهمين بما يكفي ليساهموا بعنصر مهم في سكان العديد من المدن الأجنبية. ومن الجدير بالذكر أيضًا أنه حتى عندما أتيحت لهم، على ما يُفترض، فرصة العودة إلى موطن عرقهم، فضل العديد من اليهود البقاء في أجزاء بعيدة من المملكة الفارسية. تُظهر الأسماء المذكورة على ألواح نيبور أن اليهود وجدوا أنه من المفيد البقاء على ضفاف بابل حتى أواخر القرن الخامس؛ بينما في مقاطعة نائية أخرى من الإمبراطورية الفارسية (كما كشفت برديات أسوان)، استمرت مستوطنة خاصة مزدهرة من نفس العرق حتى عام 500 قبل الميلاد وما بعده.

القسم 7. آسيا في عهد فارس

بمجمل الأدلة، قد يزعم الفرس، وبحق، أن تنظيمهم الإمبراطوري في أوج عطائه، على الرغم من افتقاره إما للقوة المركزية أو للتبرير النظري للحكم الحضاري الحديث، قد حقق تقدمًا كبيرًا للغاية، وأنه لا يُقارن حتى بالرومان فيما يتعلق بالحرية والسلام اللذين ضمنهما فعليًا لرعاياه.

لا حاجة - أو يمكن - قول الكثير عن الشعوب الأخرى المهزومة قبل أن نعود إلى الإغريق. فمع أن كورش لم يعش ليتلقى شخصيًا خضوع جميع شعوب غرب آسيا، إلا أن ابنه قمبيز قد نال ذلك قبل انتهاء حكمه القصير الذي دام ثماني سنوات. لم تقتصر الإمبراطورية الآن على جميع أراضي البر الرئيسي التي كانت خاضعة لسيطرة الميديين والبابليين فحسب، بل شملت أيضًا أراضي أوسع بكثير شرقًا وغربًا وجنوبًا، وحتى جزر البحر الأبيض المتوسط التي تقع بالقرب من الشواطئ الآسيوية. ومن بين هذه الجزر الأخيرة قبرص، التي أصبحت الآن أكثر ارتباطًا بفينيقيا مما كانت عليه في الماضي، واتحدت مع الأخيرة لتوفير القوات البحرية اللازمة لاحتياجات الملك العظيم. شرقًا، هضبة إيران، التي تُراقب من مقرين ملكيين، باسارغاد في الجنوب وإكباتانا في الشمال، وسعت هذه المملكة إلى أبعاد أكبر مما كانت تتباهى به أي إمبراطورية شرقية سابقة. جنوبًا، أضاف قمبيز قورينا، ومن المؤكد أن نابيا إلى مصر نفسها، التي سيطرت عليها آشور لفترة وجيزة، كما رأينا. غربًا، كان كورش وقادته قد سيطروا بالفعل على جميع آسيا الواقعة خارج حدود الميديين، بما في ذلك قيليقية، حيث (كما هو الحال في ممالك أخرى، مثل فينيقيا وقبرص وكاريا) قبلت السلالة المحلية وضع التبعية.

ومع ذلك، لا ينبغي أن يُفهم من هذا أن الشرق كله قد استقر فجأة في حالة من الخضوع الراضي. فقد قطع قمبيز، بقتله لأخيه، خط الخلافة المباشر. ظهر مدعي للعرش في الشرق الأقصى؛ ومات قمبيز في طريقه لملاقاته، وعلى الفور ثارت جميع المقاطعات الشرقية، باستثناء موطن بلاد فارس. لكن داريوس، ابن هيستاسبيس، وهو شابٌّ من أقارب العائلة المالكة، قتل المُدّعي، وبعد أن رسّخ مكانته على العرش، أعاد ميديا وأرمينيا وعيلام، وأخيرًا بابل، إلى طاعة الرومان. وبعد ست سنوات، عادت المدينة الإمبراطورية القديمة الواقعة على نهر الفرات إلى محاولة أخرى للاستقلال، ثم انتكست إلى مدينة إقليمية. أمضى داريوس نحو عشرين عامًا في تنظيم إمبراطوريته على نظام المرزبان، المعروف لنا جيدًا من المصادر اليونانية، وفي تعزيز حدوده. ولتحقيق هذا الهدف الأخير، عبر إلى أوروبا، حتى أنه عبر نهر الدانوب عام 511 لصد غارات السكيثيين؛ وضمن السيطرة على المضيقين وسلامة ممتلكاته في شمال غرب آسيا بضم جنوب شرق شبه جزيرة البلقان، مع المدن اليونانية المزدهرة على سواحلها.

القسم 8. بلاد فارس والإغريق

انتهى القرن السادس، واستمر القرن الخامس ثلاث سنوات في سلام ظاهري متواصل بين الشرق والغرب. لكن المتاعب كانت وشيكة. فرضت بلاد فارس نفسها على مدن امتلكت حضارة متفوقة، ليس فقط على قوتها الكامنة، بل على قوتها الفعلية؛ على مدن شكل فيها الشغف الفردي والجماعي بالحرية الدين الوحيد الذي يتعارض مع سلطتها المتسامحة؛ على مدن واعية بهويتها الوطنية مع جماعة قوية خارج الإمبراطورية الفارسية، ومستعدة عاجلاً أم آجلاً لخوض حرب مع تلك الجماعة نيابة عنها.

وهكذا، تكمن أسباب كبيرة وراء الاحتكاك والمؤامرات التي، بعد جيل من الخضوع، دفعت المدن الأيونية، بقيادة ميليتوس كما في السابق، إلى إشعال فتيل صراع درامي كان من المقدر له أن يصنع التاريخ لزمن طويل قادم. لا يمكننا هنا أن نتناول بالتفصيل الأحداث التي أشعلت الثورة الأيونية. يكفي القول إن جميعها وُلدت في مدينة ميليتوس العظيمة، حيث كان أمراؤها التجار وشعبها مصممين على استعادة السلطة والسيادة التي تمتعوا بها حتى وقت قريب. في الواقع، أدى فشلهم الأولي في تعظيم أنفسهم بحسن نية بلاد فارس إلى ثورتهم، لكنه لم يُعجّل إلا بصراعٍ لا مفر منه في نهاية المطاف على أحد جانبي بحر إيجة أو الآخر.

45

بعد أن أشعلت الثورة الأيونية النار في ساحل الأناضول بأكمله من مضيق البوسفور إلى بامفيليا وحتى قبرص لمدة عامين، فشلت، ويعود ذلك إلى الغيرة الخاصة للمدن اليونانية نفسها، وإلى الإجراءات الصارمة التي اتخذها داريوس ضدها برًا، والفينيقيون المطيعون له

في البحر. حسمت هزيمة بحرية مصير ميليتوس، التي وجد مواطنوها، مما أثار رعب اليونان بأكملها، أن الفرس كانوا يعاملون المتمردين أحيانًا كخليفة مخلص لشلمانصر ونبوخذنصر. لكن على الرغم من فشلها، فقد أحدثت الثورة فصلاً ثانياً في الدراما. فمن جهة، أشركت في السياسة الفارسية بعض مدن الوطن الأم اليونانية، ولا سيما أثينا، التي هاجمت قواتها، بجرأة بالغة، الملك العظيم بالمساهمة في إحراق مدينة ساردس السفلى؛ ومن جهة أخرى، دفعت مستبداً على الساحل الأوروبي للدردنيل، يُدعى ملتيادس، وهو أثيني مقدر له المجد الخالد، إلى إثارة غضب داريوس أكثر بالاستيلاء على جزيرتي ليمنوس وإمبروس.

من الواضح أنه لا يمكن الوثوق باليونانيين الآسيويين، على الرغم من أن نزع سلاحهم قد قُطعت مخالبهم، وتراجعت دوافعهم للتمرد بإزاحة مستبدينهم، ولا يمكن الحفاظ على إقليم البلقان بأمان، بينما ظل اليونانيون الغربيون متحدين، ودعمت أثينا، على وجه الخصوص، التي كانت تهدف إلى السيطرة على تجارة بحر إيجة، المستعمرات الأيونية. لذلك، عزم داريوس على ضرب هذه المدينة التي وعد طاغيتها المنفي، هيبياس، بالتعاون الغادر؛ واستدعى الدول اليونانية الأخرى للخضوع رسميًا والحفاظ على السلام. أُرسل أسطول أول حول الساحل الشمالي عام 492، فأضاف مقدونيا إلى الإمبراطورية الفارسية؛ لكنه شلّ وصمدت أمام العواصف. أما الأسطول الثاني، الذي أُرسل بعد عامين مباشرة عبر بحر إيجة، فقد ضيّق على جزر سيكلاد، وانتقم من إريتريا، إحدى أصغر المذنبين في قضية سردي، وأُقيم أخيرًا على ساحل الأتيك في ماراثون. ينبغي أن يروي مؤرخ يوناني الهزيمة العالمية الشهيرة التي مُنيت بها فرق الإنزال هناك، لا أن يرويها مؤرخ شرقي؛ وكذلك ينبغي أن يروي مؤرخ الغزو الثالث والأخير.

الذي قاده زركسيس شخصيًا، بعد عشر سنوات من وفاة داريوس العجوز، إلى الهزيمة في سلاميس، وغادر ليواجه الهزيمة النهائية بقيادة قائده العام في بلاتيا. ولغرضنا، يكفي أن نلاحظ آثار هذه السلسلة الجسيمة من الأحداث على الشرق نفسه.

القسم 9. نتائج الهجمات الفارسية على اليونان

من الواضح أن الفشل الأوروبي لبلاد فارس لم يؤثر على المهزومين بقدر ما أثر على المنتصرين.

باستثناء الطرف الغربي للإمبراطورية الفارسية، ليس لدينا ما يبرر القول بأنه كان له أي نتيجة سياسية جادة على الإطلاق. يبدو أن ثورة مصر التي اندلعت في العام الأخير من حكم داريوس، والتي قمعها خليفته بسهولة، لم تكن مرتبطة بالكارثة الفارسية في ماراثون؛ وحتى بعد أن مُنيت الفرس بهزيمتين عظيمتين في اليونان، وهزيمة رابعة قبالة سواحل آسيا نفسها - معركة ميكالي - التي أعقبتها مباشرةً خسارة سيستوس، المفتاح الأوروبي لمضيق الدردنيل،

ومن بُعدٍ أبعد، خسارة ليس فقط جميع الممتلكات الفارسية في البلقان والجزر، بل أيضًا المدن اليونانية الأيونية ومعظم جزر إيوليا، وأخيرًا (بعد الهزيمة البحرية الأخيرة قبالة يوريميدون) كامل ساحل الأناضول من بامفيليا حتى بروبونتيس - لم تُعانِ القوة الفارسية، حتى بعد كل هذه الهزائم والخسائر، من تراجع في آسيا الداخلية أو فقدان هيبتها في آسيا الصغرى الداخلية. بل إن بضع سنوات مرت قبل أن تستغل المقاطعة المصرية، التي لا تهدأ أبدًا، فرصة وفاة زركسيس للتحالف مع القوة الجديدة والقيام بمحاولة جديدة للتخلص من نير الفرس؛ لكنها حاولت مرة أخرى دون جدوى. عندما تخلت بلاد فارس عن سيادتها المباشرة على ساحل الأناضول، لم تُعانِ من خسائر تجارية تُذكر، وأصبحت أكثر أمنًا. من الواضح أن حكامها استمروا في إدارة التجارة الغربية، ومن الواضح أيضًا أن ثروة إمبراطوريتها ازدادت بنسبة أكبر من ثروة المدن اليونانية. لا توجد أدلة تُذكر على التوسع التجاري الهيليني نتيجةً للحروب الفارسية، ولكن هناك أدلة كثيرة على استمرار الفقر الهيليني، بل وتزايده. في النهاية، وجدت بلاد فارس نفسها في وضعٍ يُمكّنها تقريبًا من استعادة ما خسرته في المعركة بالذهب، وممارسة نفوذ مالي على اليونان أكبر وأطول أمدًا مما حققته بالسلاح. علاوة على ذلك، كانت إمبراطوريتها أقل عرضة للهجوم عندما كانت محدودة بالطرف الغربي لهضبة الأناضول، ولم تعد تحاول السيطرة على أي أراضٍ أوروبية. هناك تنوع جغرافي بين ساحل الأناضول والهضبة. في جميع العصور، كانت الأخيرة وحدها جزءًا لا يتجزأ من آسيا الداخلية، وظل مجتمع وسياسة إحداهما متميزًا عن مجتمع وسياسة الأخرى. لم تكن حدود آسيا القوية عند طرفها الغربي من شبه الجزيرة تقع على الساحل، بل خلفه. وفي الوقت نفسه، ورغم أن نتائجها المباشرة على الإمبراطورية الفارسية لم تكن بالغة الضرر، إلا أن تلك الحملات الفاشلة إلى أوروبا زرعت بذور الكارثة النهائية. وكنتيجة مباشرة لها، اكتسب اليونانيون وعيًا بقيمة قتالهم في البر والبحر مقارنةً بشعوب آسيا الوسطى والفينيقيين. وتلاشى خوفهم السابق من التفوق العددي، وتبدد الكثير من الغموض الذي كان يُضخم ويُخفي حتى ذلك الحين القوة الشرقية. وبصورة لا تقل وضوحًا، أوحت تلك الحملات لليونانيين لأول مرة بوجود عدو مشترك لجميع عرقهم، وساحة خارجية لتعديهم ونهبهم المشترك. بقدر ما كان مقدرًا لفكرة القومية أن تؤثر في العقول اليونانية، فإنها ستستمد إلهامها من ذلك الحين فصاعدًا من شعور بالتفوق المشترك والعداء المشترك تجاه الشرقيين. باختصار، أرست بلاد فارس أسس القومية اليونانية وعززت نموها في طموح مشترك موجه ضدها. وكان من نصيبها أيضًا، بدفعها أثينا إلى صدارة الدول اليونانية، أن تمنح الأمة الناشئة أكثر القادة إلهامًا ومبادرة - الأكثر خصوبة في الأفكار الإمبراطورية والأكثر قدرة على تحقيقها: وفي تراجعها أمام تلك الأمة، جذبت مطاردها إلى عالم، لو لم تتقدم هي نفسها إلى أوروبا، لما رأته على الأرجح لقرون قادمة.

علاوة على ذلك، ومن خلال تغيير لاحق في موقفها تجاه عدوها المنتصر - مع أن هذا التغيير لم يكن إهانةً لها تمامًا - غرست بلاد فارس في اليونانيين غرورًا أكبر بأنفسهم وفهمًا أعمق

لضعفها. انتقل الفرس، بذكائهم وتنوع مهاراتهم اللذين لطالما تميز بهما عرقهم، بسرعة كبيرة من الازدراء المفرط لليونانيين إلى الإعجاب المفرط بهم. شرعوا على الفور تقريبًا في جذب رجال الدولة والعلماء اليونانيين إلى مجتمعهم، والاستفادة من الجنود والبحارة اليونانيين.
وسرعان ما نجد حكامًا غربيين يبنون علاقات ودية مع المدن الأيونية، ويستضيفون اليونانيين المتميزين والمرموقين بحفاوة.

مُحَرِّكًا بذلك التحيزات السياسية والدينية اليونانية. لا بد أنهم حققوا نجاحًا كبيرًا، بينما كانوا يُعِدّون بذلك كارثةً دون قصد. عندما زحفت أوروبا الغربية شرقًا بقوة، بعد أكثر من قرن بقليل، لإنهاء الهيمنة الفارسية، أبدت بعض المدن الأيونية والكارية الكبرى مقاومةً طويلة الأمد، وهو ما لا يُعزى فقط إلى نفوذ الذهب الفارسي أو إلى وجود عنصر فارسي في إدارتها. أغلقت ميليتوس وهاليكارناسوس أبوابهما ودافعتا عن أسوارهما باستماتة ضد الإسكندر، لأنهما رأتا أن مصالحهما الخاصة تكمن في استمرار الإمبراطورية الفارسية. ولم يكن الفرس أقل نجاحًا مع استقدام اليونانيين فعليًا إلى خدمتهم. ظل المرتزقة اليونانيون موالين للملك العظيم عندما جاء الهجوم اليوناني، وخاضوا مع الإسكندر أشرس معاركه في المعارك الثلاث الكبرى التي حسمت مصير الشرق. ومع ذلك، كان هذا الموقف تجاه اليونانيين انتحاريًا. لقد رفعت روح أوروبا، بينما أفسدت شجاعة آسيا وقوَّضت استقلاليتها.

القسم ١٠: الهجمات المضادة الأولى

٤٧

ومع ذلك، هذا استباقٌ للتبعات. دعونا نُحدِّق أخيرًا في العالم الشرقي عام ٤٠٠ قبل الميلاد، ونُراجعه كما بدا آنذاك لأعينٍ كان المستقبل مُخبَّأً عنها. كانت سواحل آسيا الصغرى، عمومًا، في أيدي اليونانيين، وكانت المدن مجتمعاتٍ تجاريةً مستقلةً، كما فهم اليونانيون الاستقلال؛ لكن معظمهم، حتى قبل أربع سنوات، اعترفوا بسيادة أثينا، أو بالأحرى قيادتها الفيدرالية، والآن يُقرُّون، وإن بغير إرادة، بتفوقٍ إسبرطيٍّ تأسس في البداية بالتعاون الفارسي. العديد من هذه المدن، التي حافظت طويلًا على علاقات وثيقة مع الحكام الفرس في المناطق الداخلية الأقرب، لم تُشكل سياساتها لإرضاء الحكام الفرس فحسب، بل اعترفت أيضًا بالسيادة الفارسية؛ وبما أنه، كما حدث، في تلك اللحظة تحديدًا، كانت إسبرطة قد اختلفت مع بلاد فارس، وكان جيش إسبرطي بقيادة ديرسيليداس يحتل المنطقة الإيولية في الشمال، فقد ساور الشك مدن إيونيا وكاريا "الطيبة" بشأن مستقبلها. وبشكل عام، كانت لا تزال تميل إلى المرازبة. في الواقع، ازداد النفوذ الفارسي، بل والسيطرة الفارسية، بشكل كبير على الساحل الغربي منذ أن حلت قوة غير معتادة على السياسة الإمبراطورية وغير كفؤة في الشؤون البحرية محل أثينا؛ واستعادت أساطيل فينيقيا وقبرص، اللتان وقع أمراؤهما اليونانيون تحت السيطرة الفينيقية، هيمنتهما البحرية. ومع ذلك، قبل عام واحد فقط، زحف "عشرة آلاف" يوناني مدججين

بالسلاح (وحوالي نصف هذا العدد من جميع الأسلحة)، معظمهم من الإسبرطيين، عبر غرب آسيا. ذهبوا كحلفاء مرتزقة لقوة محلية أكبر بقيادة كورش، الأمير الفارسي الحاكم لغرب وسط الأناضول، الذي كان يطمع في تاج أخيه المُتوّج حديثًا. بعد أن اجتازوا مملكتي ليديا وفريجيا القديمتين، انتقلوا إلى قيليقية، ثم صعدوا مرة أخرى عبر شمال سوريا إلى نهر الفرات، متجهين (مع أنهم لم يعرفوا ذلك إلا في النهاية عن طريق مياه النهر العظيم نفسه) إلى بابل. لكنهم لم يصلوا إلى تلك المدينة قط. لاقى كورش حتفهم، وتقبل جنوده الشرقيون الهزيمة في كوناكسا، قبل أربعة أيام تقريبًا من الوصول إلى الهدف. لكن اليونانيين الذين لم يُهزموا، رفضوا الاستسلام، ورغم قلة عددهم، إلا أنهم كانوا محط خوف الفرس الشديد لدرجة أنهم لم يتعرضوا لمضايقات مباشرة، فاضطروا للعودة إلى أرضهم بكل ما أوتوا من قوة.

كيف، رغم فقدان قادتهم الأصليين، وصلوا إلى البحر الأسود وأمنوا عبر وادي دجلة والممرات البرية لأرمينيا الكردية، يعلم ذلك جيدًا جميع قراء زينوفون، الأثيني الذي خلفهم في القيادة. الآن، في عام 400 قبل الميلاد، كانوا يظهرون من جديد في مدن غرب آسيا وأوروبا ليخبروا عن مدى انفتاح القارة الداخلية على اللصوص الجريئين، ومدى ضآلة قدرة عشرة شرقيين على الهجوم أو الدفاع ضد يوناني واحد. شجعت مثل هذه القصص إسبرطة آنذاك على اتباع سياسة تقدمية، وستشجع يومًا ما قوة غربية أقوى منها على الزحف نحو غزو الشرق. نحن محظوظون بحصولنا على سرد زينوفون المفصل لمغامرات هؤلاء اليونانيين، ولو لمجرد أنه يُلقي الضوء بالمناسبة على آسيا الداخلية في نفس لحظة مسحنا تقريبًا. نرى سرديس تحت حكم فارس كما كانت تحت حكم ليديا، عاصمة الأناضول؛ ونرى سهول وادي ليديا وفريجيا الشاسعة، شمالًا وجنوبًا، مأهولة بالسكان، ووفيرة الإمدادات، وتحت السيطرة التامة، بينما يسيطر على سفوح جبال طوروس الوعرة ومرتفعاتها الأكثر وعورة متسلقو جبال متعنتون، لا يُمنعون من دخول السهول إلا من خلال العقاب الدوري الذي سمح كورش لجيشه بإنزاله في بيسيدية وليكونية. تُدار كيليكيا ويدافع عنها أميرها الخاص، الذي يحمل نفس اسم أو لقب سلفه في عهد سنحاريب، ولكنه مسؤول إقطاعيًا أمام الملك العظيم. كانت أرضه ملكًا خاصًا له لدرجة أن كورش، على الرغم من أنه كان يطمح إلى أن يكون سيد الإمبراطورية بأكملها، شجعه على ذلك.

نهب عاصمة المقاطعة الغنية. أساطيل كورش تُرسل جنودًا ومخازن دون أي مضايقات في شمال سوريا، بينما ينعم الجزء الداخلي من البلاد حتى نهر الفرات وواديه حتى بابل بالسلام. استطاع الملك العظيم حشد أكثر من نصف مليون رجل من الشرق والجنوب لمواجهة عدوه، بالإضافة إلى جيش ميديا، وهي مقاطعة يبدو الآن أنها تضم معظم بلاد آشور القديمة. تُشكل هذه المئات من الآلاف جيشًا غير مُدرّب، وغير منضبط، وغير مستقر، وغير مُعتاد على الخدمة، لا يُشبه الكتائب المُنظّمة لقوة عسكرية جوهرية كالتي كانت عليها الآشورية.

من قصة الانسحاب، يُمكن استخلاص بعض الاستنتاجات الإضافية. أولًا، كانت بابل جزءًا من الإمبراطورية، ولم تكن مُتأثرة كثيرًا بالملك العظيم؛ وإلا لما سمحت الميليشيات المحلية لليونانيين بدخولها بسهولة، ولما شجعهم الفرس على مغادرتها. ثانيًا، كانت آشور القديمة مقاطعة مسالمة لم تُجبرها قوة فارسية قائمة أو حاميات ذات قوة. ثالثًا، لم تكن كردستان الجنوبية خاضعة للملك العظيم أو له، وكانت تدفع الجزية فقط لضغوط عرضية. رابعًا، كانت بقية كردستان وأرمينيا، حتى أقصى شمال نهر الفرات، خاضعة، بشكل محفوف بالمخاطر، للفرس؛ وأخيرًا، شمال وادي الفرات حتى البحر الأسود، كانت كلها استقلالًا عمليًا. لا نعرف شيئًا دقيقًا عن المقاطعات الشرقية البعيدة أو جنوب سوريا في هذا العام، 400. جاء أرتحشستا، الملك العظيم، من سوسة للقاء أخيه المتمرد، لكنه عاد إلى بابل لقتل قادة الإغريق المخذولين. في هذه اللحظة، كان كتسياس، اليوناني الكنيدي، طبيب بلاطه، ولم يكن صديقًا لكورش أو لإسبرطة. حتى ذلك الحين، كان على تواصل مع القائد الأثيني الذي سيُعيّن لاحقًا أميرالًا فارسيًا ويسحق الأسطول الإسبرطي. وقد نجت من تاريخه لبلاد فارس بعض الشذرات وبعض المقتطفات المختصرة المتعلقة بهذه الفترة. لهذه المقتطفات قيمة، يبدو أن الجزء الأكبر من كتابه لم يكن يتمتع بها؛ إذ إنها تروي ما سمعه ورآه معاصرٌ له، يتمتع بمكانة فريدة تُمكّنه من معرفة أخبار البلاط.

يُستنتج أن الملك والبلاط قد ابتعدا عن أفكار وممارسات كورش الأول.

كان أرتحشستا غير محارب، متساهلًا في دينه (مع أنه قد رُسِّم رسميًا في باسارغاد)، ومدمنًا على ممارسات غير زرادشتية. استاء منه كثير من الفرس، كبارًا وصغارًا، وتجمعت أعداد كبيرة منهم خلف أخيه؛ لكن كان لديه بعض المغامرين الغربيين في جيشه. كانت سيدات البلاط يتمتعن بسلطة في البلاط تفوق سلطة الملك العظيم، واشتد الخلاف بينهن.

بلوتارخ، الذي استقى مادةً لحياة أرتحشستا ليس فقط من كتسياس، بل أيضًا من مصادرَ فُقدت عنا الآن، يترك لنا الانطباع نفسه تقريبًا عن أسياد الشرق في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد. حكم مركزي فاسد وخائن، تُوجِّهه إلى حد كبير مؤامرات الحريم؛ وجماعة من الرعايا غير المتحمسين، متروكة لمكائد الساتراب؛ وجيوش غير كفؤة ومُجمَّعة عشوائيًا، حيث كان المرتزقة الأجانب هم الجنود الحقيقيون الوحيدون تقريبًا - هكذا كانت بلاد فارس آنذاك. كان الأمر مختلفًا تمامًا عن حكم قورش القوي والنظام الإمبراطوري لداريوس الأول - شيءٌ يُشبه إلى حد كبير الإمبراطورية العثمانية في القرن الثامن عشر الميلادي - شيءٌ سينهار أمام أول زعيم غربي من الرجال الذين يستطيعون السيطرة على أموال من صنعه وجيش محترف من شعبه.

٥ .انتصار الغرب

بلغت ذروتها بعد حوالي سبعين عامًا. وبعد أن دخلت هذه الحقبة التاريخ، دخلت الإمبراطورية الفارسية أيضًا، وأصبح الشرق، كما تصوره الإغريق حتى ذلك الحين وكما فهمناه نحن، خاضعًا للعرق الأوروبي الذي حاول قبل قرن ونصف إخضاعه في أوروبا نفسها. بالنسبة لهذا العرق (وللمؤرخ أيضًا)، لم يعد "الشرق"، كمصطلح جغرافي، يُشير إلى منطقة مكانية وفكرة اجتماعية على حد سواء، يعني ما كان يعنيه سابقًا: وسيكون التغيير دائمًا. صحيح أن الشرق لم يتوقف عن التميز بهذه الصفة؛ لأنه سيتحرر تدريجيًا، ليس فقط من سيطرة الغرب، بل من تأثير أفكاره الاجتماعية أيضًا. ومع ذلك، بما أن الغربيين، عندما عادوا إلى بلادهم، قد أدخلوا الشرق إلى عالمهم المعروف - إلى دائرة من الأراضي المقبولة كموطن للإنسان المتحضر - فإن تاريخ سقوط الإسكندر للإمبراطورية الفارسية يُشكل حقبةً تُقسّم التاريخ العالمي كما لا تُقسّم أي حقبة أخرى.

ومهما كانت الكارثة النهائية مأساوية، فإنها لن تُفاجئنا عند وقوعها، كما أنها لم تُفاجئ الجيل الذي شهدها. إن التصور الرومانسي للإسكندر، كداود صغير يتحدى جالوت ضخم، يتجاهل حقائق التاريخ السابق، وما كان ليخطر ببال أي معاصر اطلع على علامات العصر. كان العملاق الشرقي يتضاءل بسرعة كبيرة لما يقرب من قرن من الزمان، لدرجة أن ملكًا مقدونيا، الذي كان قد أخضع شبه جزيرة البلقان بالفعل، بدا في نظر العالم، عند عبوره مضيق الدردنيل، لا يقل شأنًا عن الإمبراطور الملقب بـ"الحاكمين المتعنتين" والمقاطعات المتمردة في غرب آسيا. ولقبول هذا الرأي، يكفي أن ننظر إلى الوراء أكثر من سبعين عامًا منذ مسيرة عشرة آلاف يوناني، التي اختتمنا بها بحثنا الأخير.

<u>القسم 1. بلاد فارس ومقاطعاتها</u>

قبل حملة كورش، ربما كانت هناك، ومن الواضح، بذور فساد كافية في دولة فارس؛ لكنها لم تُعرف من ثمارها. لم يحاول أي حاكم على مدى قرن مضى فصل نفسه ومقاطعته عن الإمبراطورية؛ ولم يحاول أي شعب تابع استعادة استقلاله. كان هناك، في الواقع، استثناءان، كلاهما شعبان لم يُعرّفا نفسيهما قط بمصير أسيادهما الأجانب. أحدهما، بالطبع، كان اليونانيون الآسيويون، والآخر الشعب المصري؛ لكن تمرد الأول هدد بخطر لم تدركه آسيا بعد؛ أما روح التمرد لدى الأخير، فلم تُعره اهتمامًا إلا لنفسه.

مع ذلك، كانت مصر هي التي أطلقت بالفعل أول إنذار بتفكك الفرس. لقد تبيّن أن أضعف نقطة في الإمبراطورية الآشورية هي أضعف نقطة في الإمبراطورية الفارسية. فالحواجز

الطبيعية من الصحراء والمستنقعات والبحر، الواقعة بين مصر والقارة المجاورة، قوية لدرجة أن أي قوة آسيوية، سعت إلى غزو وادي النيل الغني، لم تتمكن قط من الحفاظ عليه طويلًا. لقد استعادت مصر استقلالها، عاجلًا أم آجلًا، تحت قيادة قادتها أو ضابط متمرد من سادتها الجدد، والتاريخ كله شاهد على أنه لا أحد، سواء في آسيا أو أوروبا، يعتبر مصر ولاية أجنبية إلا إذا كان يسيطر أيضًا على البحر. خلال القرن الذي انقضى منذ غزو قمبيز، ثار المصريون أكثر من مرة (أكثرها إصرارًا حوالي عام 460)، مستعينين بأمراء البحر لمساعدتهم في كل مرة.

وأخيرًا، قبيل وفاة داريوس نوثوس، وقبل حوالي خمس سنوات من مغادرة كورش لسردش، نهضوا من جديد تحت قيادة مصرية، وبعد ذلك، لمدة ستين عامًا تقريبًا، لم يحكم مصر ملوك سوسة، بل ثلاث سلالات محلية متتالية.

ولم يُقاس الضرر الذي لحق بالإمبراطورية الفارسية نتيجة هذا الانشقاق بمجرد خسارة إيرادات مقاطعة.

وكان ملوك مصر الجدد، الذين يدينون بالكثير للدعم اليوناني، قد ردّوا الجميل بمساعدة كل عدو للملك العظيم وكل متمرد على سلطته. وهم الذين منحوا اللجوء للأميرال وأسطول كورش بعد كوناكسا، وأرسلوا الحبوب إلى أجيسيلاوس عندما غزا آسيا الصغرى. زوّدوا الأسطول الإسبرطي بالأموال والسفن عام 394، وساعدوا إيفاغوراس القبرصي في مقاومة طويلة لسلطانه. عندما ثارت صور ومدن ساحل قيليقيا عام 380، كانت مصر مطلعة على مخططاتهم، وانضمت إلى حكام غرب آسيا وسوريا وفينيقيا عندما خططوا معًا للتمرد عام 373، مما عرض الإمبراطورية لخطر جسيم. بعد اثني عشر عامًا، نجد ملكًا مصريًا يزحف شخصيًا لاستعادة فينيقيا. بذل الفرس أكثر من محاولة لاستعادة مقاطعته. بعد فشل ذريع مع جنرالاته، تبنى أرتحشستا، متأخرًا، المسار الذي يُقال إن كلياركوس، قائد العشرة آلاف، نصح به بعد معركة كوناكسا، وجرّب حظه مرة أخرى مع الكوندوتييريين اليونانيين، ليجد جنرالات يونانيين ومرتزقة يونانيين مصطفين ضدهم. لقد وصل الأمر إلى هذا، أن الشخص اعتمد ملك سيان ومقاطعته الثائرة على سيوف المرتزقة، ولم يجرؤا على مواجهة اليونانيين إلا باليونانيين. لقد قُرئ درس مسيرة العشرة آلاف، ودُرس، واستوعب في الشرق!

القسم الثاني: بلاد فارس والغرب

لقد دُرس في الغرب أيضًا، وكانت ثماره جلية في غضون خمس سنوات. أعلنت الدولة اليونانية المهيمنة آنذاك عن طموح لم يُبدِه أي يوناني من قبل، فأرسلت ملكها، أجيسيلاوس، إلى آسيا الصغرى لمتابعة ترسيخ الهيمنة الإسبرطية على السواحل بغزو بلاد فارس الداخلية. لم يتجاوز أجيسيلاوس نصف الطريق تقريبًا حتى وادي ميندر، ولم يُلحق ببلاد فارس أي ضرر يُذكر؛ لأنه لم يكن القائد، ولم تكن لديه الموارد من الرجال والمال، لخوض هذه

المغامرة البعيدة والمريبة. لكن حملة أجيسيلاوس في آسيا الصغرى بين عامي 397 و394 تحمل هذه الأهمية التاريخية: فهي تُثبت أن اليونانيين قد اعتبروا الزحف نحو سوسة أمرًا ممكنًا ومرغوبًا فيه.

إلا أنه لم يكن ممكنًا في الواقع حتى ذلك الحين. فبغض النظر عن افتقار أي دولة يونانية إلى قوة عسكرية كبيرة بما يكفي، ومدربة تدريبًا كافيًا، ويقودها قائد يتمتع بالجاذبية والعبقرية اللازمتين للتنظيم، للقيام، دون مساعدة من حلفاء في الطريق، بزحف ناجح إلى نقطة تبعد أشهرًا عديدة عن قاعدتها - وبصرف النظر عن هذا النقص، فإن الإمبراطورية التي كان من المقرر غزوها لم تكن قد هُزت بعدُ حقًا. على الأرجح، ما كان لعشرة آلاف يوناني أن يصلوا بقيادة كليارتشوس إلى كوناكسا أو إلى أي مكان يقع على بُعد مئات الأميال منها، لولا حقيقة أن كورش كان معهم، وأن أتباع نجمه الصاعد كانوا يُلبون احتياجاتهم، وقد مهدوا لهم طريقًا عبر آسيا الصغرى وسوريا. في انسحابهم، كانوا رجالاً يائسين، وقد سعد الملك العظيم بالتخلص منهم. إن النجاح في ذلك الانسحاب يجب ألا يُعمينا عن الفشل شبه المؤكد الذي كان سيُصيب التقدم لو جرت محاولته في ظل ظروف مماثلة.

القسم 3. الساترابات

في النهاية، كان ما أدى إلى إضعاف الإمبراطورية الفارسية إلى درجة أن قوة غربية استطاعت ضرب قلبها بأكثر من أربعين ألف رجل بقليل، هو داء الخيانة الذي انتشر بين كبار الضباط خلال النصف الأول من القرن الرابع.

قبل حملة كورش، لم نسمع عن أي من الساترابات أو المقاطعات التابعة التي رفعت راية الثورة (باستثناء مصر)، لأن الإمبراطورية كانت راسخة؛ وإذا كان هناك تواطؤ واضح مع تلك الحملة من جانب الضباط الإقليميين في آسيا الصغرى وسوريا، فإن هذه الحقيقة لا أهمية سياسية لها، نظرًا لأن كورش كان من سلالة العائلة المالكة، والمفضل لدى الملكة الأم. لكن القرن الرابع لم يبدأ إلا بالكاد حتى نجد المرازبة والأمراء يساعدون أعداء الملك ويقاتلون دفاعًا عن أنفسهم ضده أو ضد ضابط منافس. تلقى أجيسيلاوس المساعدة في آسيا الصغرى من أمير بافلاغونيا ونبيل فارسي. بعد عشرين عامًا، ثار أريوبرزانيس البنطي؛ وأعقب انشقاقه تمردًا كبيرًا خطط له مرازبة كاريا وإيونية وليديا وفريجيا وكابادوكيا - جميع أنحاء آسيا الصغرى تقريبًا في الواقع - بالتنسيق مع المدن الساحلية في سوريا وفينيقيا. مرت عشر سنوات أخرى وثار حكام جدد لميسيا وليديا على ملكهم بمساعدة المصريين وماوسولوس، أمير هاليكارناسوس. أدى الخيانة أو نقص الموارد والاستقرار إلى كارثة هؤلاء المتمردين واحدًا تلو الآخر؛ لكن الإمبراطورية التي كثيرًا ما يجرؤ ضباطها العظماء على مثل هذه المغامرات تقترب بخطى سريعة من كارثتها. إن أسباب هذا الاستياء المتزايد بين المرازبة

ليست بعيدة المنال. ففي ختام الفصل السابق، لاحظنا تدهور البلاط الذي سيطر عليه الحريم في الأيام الأولى لأرتحشستا؛ ومع مرور الوقت، كان لمشهد ملك عظيم يحكم بالخيانة، ويشتري أعدائه، ويعجز عن استعادة مصر حتى بمساعدة المرتزقة، أثره.

انتشر الاعتقاد بأن سفينة الإمبراطورية تغرق، وحتى في سوسة، تزايد الخوف من أن رياحًا من الغرب ستقضي عليها. راقب ضباط بلاط الملك العظيم السياسة اليونانية خلال السنوات السبعين الأولى من القرن الرابع باهتمام متزايد. لم يكتفوا بتجنيد أكبر عدد ممكن من اليونانيين في الخدمة الملكية، بل استخدموا الذهب الملكي لشراء أو دعم السياسيين اليونانيين الذين يمكن توجيه نفوذهم لعرقلة اتحاد الدول اليونانية وكبح القوة الصاعدة لأي وحدة، حتى أن خطيبًا يونانيًا قال في فقرة شهيرة إن الرماة الذين طبعوا على عملات الملك العظيم كانوا بالفعل خطرًا أكبر على اليونان من رماة السهام الحقيقيين.

بهذا الفساد الباذخ، وبشراء جنود وسياسيي العدو، تم تلميع صورة السلالة والإمبراطورية لفترة من الوقت. قبل وفاة أرتحشستا منيمون المسن عام 358، انهارت ثورة الساترابات الغربيين. خليفته، أوخوس، الذي، للوصول إلى العرش قتل السلطان محمد الفاتح أقاربه كأي سلطان إسطنبولي في القرن الثامن عشر، وتغلب على عناد المصريين حوالي عام 346، بعد محاولتين فاشلتين، بمساعدة جنود يونانيين مرتزقة، وبمساعدة مماثلة، استعاد صيدا وجزيرة قبرص. لكن ذلك لم يكن سوى وميضٍ خافت من لهبٍ أججته تلك الرياح الغربية نفسها التي كانت تهب بالفعل لتطفئه.

لم يكن قلب الإمبراطورية أقل تآكلًا لأن قشرتها كانت مُرقعة، وفي النهاية، عندما هدأت العاصفة بعد بضع سنوات، لم يكن هناك شيء في غرب آسيا قادر على الصمود سوى مدينتين أو ثلاث مدن بحرية، حاربت، ليس من أجل بلاد فارس، بل من أجل احتكاراتها التجارية.

القسم 4. مقدونيا

كانت العاصفة تتجمع في الأفق الغربي منذ فترة. قبل عشرين عامًا، اعتلى عرش مقدونيا رجلٌ يتمتع بقدرة بناءة فريدة وطموحٍ بالغ. كان إرثه - أو بالأحرى جائزته، إذ لم يكن من أقرب أقربائه إلى سلفه - هو الجزء الجنوبي الأوسط من شبه جزيرة البلقان، وهي منطقة من السهول الواسعة السميكة التي تُحيط بها وتقطعها تلال وعرة. كان يسكنها نبلاء وفلاحون أقوياء، وسكان مرتفعات رشيقون، جميعهم من نفس العناصر العرقية التي ينتمي إليها اليونانيون، مع ربما غلبة الدم الشمالي الذي وصل جنوبًا منذ زمن بعيد مع المهاجرين من أراضي الدانوب. لم يكن التطور الاجتماعي للمقدونيين - لنُطلق على مختلف الشعوب اسمًا عامًا واحدًا -، لأسبابٍ معينة، بنفس سرعة تطور أبناء عمومتهم الجنوبيين. لم يتواصلوا قط مع حضارة بحر إيجة العليا، ولم يختلط دمهم بدم أسلافهم المثقفين؛ كانت أرضهم قارية، فقيرة

الموانئ، بعيدة عن مراكز الحياة الفاخرة، وذات مناخ قاسٍ نسبيًا؛ لم يُشجعهم تكوينها على تكوين دول مدن والانخراط في حياة سياسية نشطة. ولكن، كتعويض عن ذلك، دخلوا القرن الرابع غير مُنهَكين، دون عوائق قبلية أو سياسية تحول دون وحدتهم، وبأرض واسعة ذات موارد طبيعية أكبر من أي دولة يونانية جنوبية. استطاعت مقدونيا أن تُزوّد نفسها بأفضل أنواع الحبوب الغذائية، وكانت لديها عروق خام ذهب غير مستغلة. لكن أهم ما يجب ملاحظته هو أن مقدونيا، مقارنةً باليونان، كانت منطقة في أوروبا الوسطى. في مسيرة الأخيرة نحو القوة الإمبراطورية، سنشهد لأول مرة في التاريخ المُدوَّن شعبًا أوروبيًا قاريًا يُسيطر على سكان شبه جزيرة البحر الأبيض المتوسط. لقد رأى فيليب المقدوني، الذي تدرب على فنون الحرب والسلام في مدينة يونانية، ضعف اليونانيين المنقسمين، والقوة المحتملة لشعبه، فشرع في العمل منذ البداية بطاقة وفيرة ومثابرة لا هوادة فيها وموهبة هائلة في التنظيم لإنشاء أمة واحدة مسلحة، والتي من شأنها أن تكون أكثر من ند للعديد من مجتمعات اليونان. كيف حقق هدفه في حوالي عشرين عامًا: كيف بدأ بفتح مناجم المعادن الثمينة على ساحله الجنوبي الشرقي، واستأجر مرتزقة من العائدات: كيف درّب الفلاحين المقدونيين على القتال في تشكيل كتيبة أكثر قدرة على الحركة من طيبة وبرماح أطول، بينما دُرب النبلاء على القتال في سلاح الفرسان الثقيل: كيف أجرى تجارب مع جنوده الجدد على القبائل الداخلية، ووسّع بذلك نفوذه المؤثر حتى أصبح قادرًا على حشد ما يفوق بكثير ما كان عليه رجال عشيرته في إيماثيا: كيف أتقن هذا الجيش الوطني لمدة ست سنوات حتى أصبح آلة قتال احترافية كأي فرقة كوندوتيير في ذلك الوقت، وفي الوقت نفسه أكبر حجمًا وأكثر هدوءًا: كيف، عندما أصبح جاهزًا في ربيع عام 353، بدأ حربًا استمرت خمسة عشر عامًا للتعدي على ممتلكات الدول اليونانية، وخاصة أثينا، مهاجمًا بعضًا منها المستعمرات البحرية في مقدونيا وتراقيا: كيف، بعد حملة في تراقيا الداخلية وعلى خيرسونيس، ظهر في اليونان، حيث شق طريقه أخيرًا عبر ثيرموبيلاي؟ وكيف انسحب، مرة أخرى، لعدة مواسم إلى شبه جزيرة البلقان، وهاجمها من البحر الأدرياتيكي إلى البحر الأسود، وانتهى بهجوم على آخر وأعظم مدنها الساحلية اليونانية الحرة، بيرينثوس وبيزنطة؟ وكيف، أخيرًا، في عام 338، قادمًا جنوبًا بكامل قوته، سحق في معركة خيرونيا القوتين العظيمتين في اليونان، أثينا وطيبة، وحصل أخيرًا على اعتراف بسيادته من كل دولة يونانية باستثناء إسبرطة (التي كان بإمكانه إهمالها) - لا يجب وصف هذه المراحل في بناء فيليب لأمة وإمبراطورية أوروبية بمزيد من التفصيل هنا. ما يهمنا هو نهاية كل شيء؛ لأن النهاية كانت ترتيب تلك الأمة الجديدة وتلك الإمبراطورية الجديدة للنزول إلى آسيا. بعد عام من خيرونيا، عُيّن فيليب من قِبَل مؤتمر كورنثوس قائدًا عامًا لجميع اليونانيين لشنّ انتقام هيلاس الدنيوي على بلاد فارس.

كم من الوقت كرّس فيه عمدًا آلته الحربية لغزو آشور النهائي؟

لا نعلم. كان الأثينيون قد صرحوا صراحةً للملك العظيم عام ٣٤١ بأن هذا هو طموح المقدوني، وقبل أربع سنوات، أشار الخطيب الشهير إيسقراطس إلى ذلك علنًا في رسالة مفتوحة كتبها إلى فيليب نفسه. وبما أن الأخير كان رجلاً بعيد النظر وصاحب هدف ثابت، فليس من المستبعد أن يكون قد تبلور لديه هذا الطموح في شبابه وظل يحتضنه طوال الوقت. بينما كان فيليب في طيبة شابًا، كان أجيسيلاوس العجوز، أول من خطرت له فكرة غزو الشرق الداخلي بين اليونانيين، لا يزال يبحث عن طريقة لتحقيق مشروعه الذي غالبًا ما أُحبط؛ وفي النهاية، ذهب إلى مصر ليبذل جهده الأخير بعد اعتلاء فيليب العرش. كانت فكرة أن أي قوة عسكرية قد تسيطر على هيلاس ستكون مقيدة في المقام الأول بمصلحتها الذاتية، وثانيًا بواجبها العنصري لتوجيه أسلحتها ضد آسيا، راسخة منذ زمن. كان الملك العظيم نفسه يعلم هذا جيدًا كما يعلم أي شخص آخر. بعد التحذير الأثيني عام 341، أُمر ولاة فيليب في شمال غرب آسيا الصغرى بمساعدة أعداء فيليب بكل طريقة ممكنة؛ وبفضل مساعدتهم إلى حد كبير، صدّ البيزنطيون المقدونيين عن أسوارهم عام 339. كان فيليب قد أقام صداقات مع بيت كاريا الأميري، وكان الآن يبذل قصارى جهده لتأمين موطئ قدم في شمال غرب آسيا الصغرى. لذلك، أرسل طابورًا متقدمًا عبر الدردنيل بقيادة مساعده الرئيسي، بارمينيو، واقترح أن يتبعه في خريف عام 336 بجيش كبير كان يجنده ويدربه ويجهزه لمدة اثني عشر شهرًا. حلّ يوم المهرجان الذي كان من المفترض أن يفتتح مغامرته الكبرى؛ لكن المغامرة لم تكن من نصيبه. وبينما كان يخرج من خيمته لحضور الألعاب، وقع على يد عدو خاص؛ وكان لدى ابنه الصغير، الإسكندر، في البداية ما يكفي من العمل لإعادة تأسيس عرشٍ ثبت أن أعداءه أكثر من أصدقائه.

القسم 5. غزو الإسكندر للشرق

بعد عام ونصف، أدرك أصدقاء الإسكندر وأعداؤه أن فيليبًا أعظم منه عسكريًا وصانع إمبراطورية، يحكم مكانه، وأن خطة والده لغزو آسيا لن تُفلح على يد ابنه. أُجبرت دول مجاورة لمقدونيا حتى نهر الدانوب وجميع دول شبه الجزيرة اليونانية على الخضوع مرة أخرى في حملة سريعة وحاسمة. ثبّت المجلس العام لليونان، الذي أُعيد عقده في كورنثوس، ابن فيليب في قيادة هيلاس، وأُرسل بارمينيو مرة أخرى إلى آسيا، فضمن الشاطئ البعيد لمضيق الدردنيل. مع حوالي أربعين ألف فارس ومشاة متمرس، وبخدمات مساعدة فعّالة بشكل غير عادي في عصره، عبر الإسكندر إلى الأراضي الفارسية في ربيع عام 334. لم يكن هناك جيش آخر في آسيا الصغرى ليُقاتله في شكله سوى قوة تُضاهيه في العدد تقريبًا، والتي جمعها محليًا حكام الغرب. باستثناء وحدته من المرتزقة اليونانيين، كانت هذه القوة أقل بكثير من القوة المقدونية في القيمة القتالية. دافع بارمينيو عنها من ساحل الهليسبونتين، فبذل قصارى جهده بالانتظار على الضفة البعيدة لنهر الغرانيكوس، أقرب مجرى مائي كبير يدخل مرمرة،

إما لصد هجوم الإسكندر، أو لقطع اتصالاته، إذا ما تقدم نحو القارة. لم ينتظر طويلًا. اندفع سلاح الفرسان المقدوني الثقيل عبر النهر في وقت متأخر من عصر أحد الأيام، وأنجز مهمة سريعة في مواجهة القوات الآسيوية، وبعد أن مهد الطريق للكتيبة، ساعدها على تفتيت الكتيبة اليونانية إلى ما يقرب من رجل واحد قبل حلول الليل. لم يبقَ أمام الإسكندر سوى دفاعات المدينة وقبائل التلال ليتعامل معها، ريثما يتم جمع جند أكبر من مقاطعات أخرى في الإمبراطورية الفارسية وجلبهم إلى الغرب، وهي عملية ستستغرق شهورًا عديدة، بل استغرقت عامًا كاملًا.

لكن بعض المدن الغربية شكلت عائقًا كبيرًا أمام تقدمه. فإذا لم تُبدِ أيوليا وليديا وأيونيا أي مقاومة تُذكر، فإن المدينتين الرئيسيتين كاريا، ميليتوس وهاليكارناسوس، اللتين كانتا تتمتعان بحرية شبه مطلقة بنصيب الأسد من تجارة بحر إيجة على مدى القرن الماضي، لم تكونا مستعدتين لأن تصبحا تابعتين لإمبراطورية عسكرية. لم يُثِر ادعاء الإسكندر قيادة حملة صليبية ضدّ المُضطهد القديم للعرق الهيليني ثقلاً عليهم، ولا على أيّ من اليونانيين في آسيا أو أوروبا، باستثناء قلة من المتحمسين. خلال السبعين عاماً الماضية، منذ أن استُبدلت احتفالات تحرير هيلاس من الفرس بطموحاتٍ نحو غزوٍ مضاد، تلاشت الرغبة في الانتقام المقدس، لكن الرغبة في نهب بلاد فارس تلاشت كثيراً. لذلك، أثارت أي مغامرةٍ مُحددةٍ في آسيا الحسد، لا الحماسة، لدى أولئك الذين سيُحبطهم نجاحها. لم تتقدم أي دولة يونانية رائدة لمساعدة الإسكندر، لا بالسفن ولا بالرجال، وبحلول الوقت الذي استولى فيه على ميليتوس، أدرك أنه يجب أن يلعب لعبته بمفرده، مع من ذلك الحين فصاعدًا، مُهمِلاً اليونانيين، أجّل زحفه إلى قلب الإمبراطورية الفارسية حتى يُؤمِّن كل طريق يؤدي إليها من البحر، سواء عبر آسيا الصغرى أو سوريا أو مصر.

بعد حصار هاليكارناسوس وكاريا، لم يفعل الإسكندر شيئًا في آسيا الصغرى سوى استعراض الجزء الغربي منها، وذلك لتعزيز موطئ قدمه في القارة. هنا وهناك، اصطدم بسكان التلال، الذين لم يعتادوا منذ زمن طويل على السيطرة الفعلية، بينما كان عليه أن يُبرم اتفاقات مع واحدة أو اثنتين من مدنهم؛ ولكن مع اقتراب الشتاء، كانت الأناضول تحت سيطرته، فاستقر في غورديون، في وادي سكاريا، حيث استطاع على الفور حماية اتصالاته مع الهيليسبونت والاستعداد للتقدم إلى أبعد آسيا عبر طريق سهل. ترك شرق آسيا الصغرى، أي كابادوكيا وبونتوس وأرمينيا، وشأنها، وستظل وحداتها منتشرة على الجانب الفارسي في المعركتين الكبيرتين القادمتين.

كما أن بعض المناطق الشمالية، التي كانت شبه مستقلة عن بلاد فارس لفترة طويلة، مثل بيثينيا وبافلاغونيا، لم تُمس بعد. لم يكن من المجدي في تلك اللحظة أن يُضيّع وقته في القتال من أجل أراضٍ ستسقط في أي حال إذا سقطت الإمبراطورية، ويمكن بسهولة السيطرة عليها

من غرب آسيا الصغرى في هذه الأثناء. كان هدفه في الداخل البعيد، وكان يعلم جيدًا الخطر الذي يُهدده، ألا وهو البحر - خطر التعاون المحتمل بين الأساطيل اليونانية والمدن الساحلية الكبرى في بحر إيجة وبلاد الشام. لذلك، مع مطلع الربيع، انتقل إلى قيليقيا ليتخذ من موانئ سوريا ومصر ملكًا له، قبل أن يُهاجم قلب الإمبراطورية. أدرك الملك العظيم، الأخير والأضعف من بين أبناء داريوس، جسامة الخطر المحدق به، فنزل مع جيش الإمبراطورية كلها محاولًا سحق الغزاة عند بوابة الأراضي الجنوبية. داريوس، الذي كان ينتظر خلف حاجز أمانوس، ترك عدوه يمر عبر زاوية ساحل بلاد الشام، وتسلل عبر التلال وقطع طريق انسحاب المقدونيين في مضيق إسوس بين الجبل والبحر. في مواجهة قائد آخر وقوات أقل خبرة، كان من المرجح أن تُنهي قوة شرقية متماسكة ومنضبطة الغزو على الفور؛ لكن قوة داريوس لم تكن متماسكة ولا منضبطة. ضيق الميدان ضغطها في حشد غفير؛ ورأى الإسكندر ورجاله، وهم يتجهون نحوهم، الفرس يُسلمون إلى أيديهم. لم يدم القتال أكثر من معركة جرانيكوس بقليل، وكانت النتيجة مجزرة ساحقة. المخيم، وقافلة الأمتعة، والحريم الملكي، ورسائل الدول اليونانية، وأشخاص المبعوثين اليونانيين الذين أُرسلوا للتخطيط لتدمير القائد العام - كل ذلك وقع في يد الإسكندر. وبعد أن تأكد من عدم مواجهة أي حشد جديد من الإمبراطورية لمدة عام على الأقل، توجه إلى سوريا. في هذه الأرض الضيقة، كان عمله الرئيسي، كما رأينا، مع مدن الساحل.

لا بد أنه سيطر على جميع الموانئ قبل التوجه إلى آسيا. لم يجرؤ الأقل شأناً على معارضة الكتيبة المنتصرة؛ لكن ملكة كل هذه الكتائب، صور، سيدة التجارة الشرقية، أغلقت أبواب حصنها الجزيري، وكلفت الدخيل الغربي بأصعب مهمة عسكرية في حياته. لكن الاستيلاء على القاعدة الرئيسية للأساطيل المعادية التي كانت لا تزال مرابطة في بحر إيجة كان أمراً بالغ الأهمية للإسكندر، فقام ببناء جسر عبر البحر لتحقيق ذلك. مدينة أخرى، غزة، التي تُسيطر على الطريق إلى مصر، أظهرت نفس الروح بموارد أقل، ومضى العام طويلًا قبل أن يظهر المقدونيون على ضفاف النيل ليتلقوا الخضوع الجاهز من شعب لم يخدم الفرس طوعًا قط. وهنا أيضًا، كان هم الإسكندر الأكبر منصبًّا على السواحل. كانت قورينا المستقلة، الواقعة في أقصى الغرب، أحد المخاطر المتبقية، وانفتاح النيل يُشكل خطرًا آخر. تلاشى الخطر الأول بالخضوع الذي أرسلته قورينا لملاقاته وهو يتجه نحو مرمرة استعدادًا للهجوم؛ أما الخطر الثاني، فقد تجسد في إنشاء ميناء الإسكندرية، الذي ربما كان أبرز عمل في حياة الإسكندر، إذ سعى إلى معرفة المكانة التي ستصل إليها المدينة، ودورها في تطور الحضارة اليونانية واليهودية، وما تبقى من حيوية حتى يومنا هذا. أما في الوقت الحالي، فقد خدم الأساس الجديد في المقام الأول لترسيخ قبضة مؤسسه على شواطئ المياه اليونانية والفارسية. في غضون بضعة أشهر، اختفت الأساطيل المعادية من بلاد الشام، وحصل الإسكندر أخيرًا على تلك السيطرة البحرية التي لولاها لكان غزو آسيا الوسطى أكثر خطورة، وكان الاحتفاظ الدائم

بمصر مستحيلاً. وهكذا، آمن قاعدته، وتمكن من الهجوم على الداخل. تقدم ببطء في أوائل عام 331 عبر الطريق الشمالي التقليدي عبر فلسطين وفلسطين، والتف حول رأس نهر حمد السوري إلى ثابساكوس على نهر الفرات، وقام، في طريقه، بزيارة احترازية إلى صور، التي كلفته الكثير من الجهد والوقت قبل عام. لم يعارض أحد عبوره للنهر العظيم؛ ولم يبقه أحد في بلاد ما بين النهرين؛ ولم يعترض أحد على مروره عبر نهر دجلة، على الرغم من أن نقل قواته استغرق خمسة أيام

ومع ذلك، كنتُ أنا نفسي على بُعد خطوات قليلة جنوب تلال نينوى، في سهل غوغاميلا، حيثُ كانت الطرق المتقاطعة من الجنوب والشرق والشمال تجلب إليه جند الإمبراطورية بأكملها التي بقيت لديه. إلى جانب الجحافل المُستقاة من القبائل المُقاتلة التي تسكن في أماكن بعيدة كحدود الهند، وضفاف نهر جيحون، وسفوح جبال القوقاز، أُضيفت كتيبة من اليونانيين المأجورين، يفوق عددهم ثلاثة أضعاف عدد الذين قُطعوا على نهر الغرانيكوس. وهكذا، وبينما كان ينتظره عشرة جنود لكلٍّ منهم على أرض مفتوحة اختارها عدوه، تقدم الإسكندر ببطء أكبر، وتوقف لمدة أربع وعشرين ساعة ليُبقي جيشه على مرمى البصر من مواقع الفرس. رافضًا المخاطرة بشن هجوم على ذلك الجيش الضخم في الظلام، نام نومًا عميقًا داخل خنادقه حتى شروق شمس الأول من أكتوبر، ثم قاد رجاله في وضح النهار ليقرروا مصير بلاد فارس. حُسم الأمر عند غروب الشمس، وكان نصف مليون رجل منهك ينطلقون جنوبًا وشرقًا في الليل المتجمع. لكن معركة أربيل، كما تُسمى عادةً - أعظم معركة بين الجيوش قبل صعود روما - لم تكن سهلة المنال. فالمقاومة النشطة للمرتزقة اليونانيين، والمقاومة السلبية للجحافل الآسيوية الهائلة، التي صدت الهجوم بثقلها الضئيل، وحاصرت كل رتل مخترق، جعلت الأمر مشكوكًا فيه، حتى داريوس نفسه، مرعوبًا من قدوم سلاح الفرسان المقدوني الثقيل، حوّل عربته وخسر اليوم. كان على رجال الإسكندر أن يشكروا ثبات نظام فيليب، ولكنهم شكروا أيضًا، في نهاية المطاف، جبن الزعيم المعارض.

نجا الملك الفارسي ليُطارد بعد عام، ويُقبض عليه وهو يحتضر في طريقه إلى آسيا الوسطى؛ ولكن قبل ذلك بوقت طويل ودون خوض معركة ضارية أخرى، انتقل العرش الفارسي إلى الإسكندر. في غضون ستة أشهر، سار إلى عواصم الإمبراطورية - بابل، وسوسة، وبرسيبوليس، وأكباتانا - ودخلها بدوره، دون أي عائق سوى مقاومة رجال القبائل الجبلية في الممرات؛ وبما أن هذه المدن كانت جميعها تحت سيطرته خلال غيابه اللاحق الذي دام ست سنوات في آسيا البعيدة، فيمكن اعتبار انتصار الغرب على الشرق القديم قد تحقق في يوم أربيل.

٦ .خاتمة

بعد أقل من عشر سنوات، لقي الإسكندر حتفه في بابل. كان قد زحف شرقًا ليستولي على أراضٍ تفوق ما حللناه في أي فصل من هذا الكتاب، أو ما كان آباؤه يعلمون بوجوده. الأراضي الشاسعة التي تُعرف الآن بأفغانستان، وتركستان الروسية، والبنجاب، وسند، وبلوشستان، قد خضعت له شخصيًا، وأصبحت تحت سيطرة حكامه وحامياته. هذا اليوناني المقدوني، الذي أصبح إمبراطورًا للشرق أعظم من أعظم إمبراطور عرفه التاريخ، كان قد قرر بالفعل أن يكون مقر إمبراطوريته في آسيا الوسطى؛ واقترح ألا يكون الشرق والغرب تحت سلطانه الواحد عالمًا منفصلًا، بل عالمًا واحدًا لا يتجزأ، تسكنه شعوب متحدة. ثم، فجأة، طُلب منه أن يُحاسب، ولم يترك وريثًا شرعيًا لجسده سوى جنين في بطن أمه. ماذا سيحدث؟ ماذا حدث بالفعل؟ يُقال غالبًا إن الإمبراطورية التي أسسها الإسكندر اندثرت معه. وهذا صحيح إذا اعتبرنا الإمبراطورية مملكة إمبراطور واحد. بصفته الحاكم الأوحد للمنطقة الشاسعة الممتدة بين نهري الدانوب والسوتليج، لم يكن للإسكندر خليفة. أما إذا اعتبرنا الإمبراطورية مملكة عرق أو أمة، فإن مقدونيا الكبرى، وإن كان مصيرها الزوال تدريجيًا، ستعيش بعد مؤسسها لما يقرب من ثلاثمائة عام؛ علاوة على ذلك، خلفتها إمبراطورية غربية أخرى، بفضل انتصاره واستمرت في بعض النواحي تحت حكمه، واستمرت في الشرق لعدة قرون أخرى. وباعتبارها غزوًا سياسيًا، كانت لغزوة الإسكندر نتائج طويلة الأمد تُنسب إلى أي غزو تقريبًا في التاريخ. وباعتبارها انتصارًا لحضارة على أخرى، لم يكن من الممكن أن يُدمر تمامًا، وكان لها آثار دائمة. هذا الفصل مُصمَّم لإظهاره: ولكن أولًا، بما أن تطور الحضارة المنتصرة على أرض أجنبية اعتمد في المقام الأول على استمرار التفوق السياسي للرجال الذين وُلدوا فيها، فمن الضروري معرفة مدة ومدى سيطرة اليونانيين فعليًا على الشرق، سواءً بالولادة أو بالتدريب.

ومن رحم الاضطرابات والضغوط التي أعقبت وفاة الإسكندر، برز مقدونيان لتقسيم الإمبراطورية الشرقية بينهما. أما البقية - أشباحٌ عابرةٌ مُحرجةٌ من العائلة المالكة، وحكامٌ على الإمبراطورية ليسوا أقلَّ زهولًا، وحكامٌ مُتغطرسون، وحتى أنتيجونوس الأعور، الذي ادّعى لفترة وجيزة سلطته على الشرق كله - فلم يُهمّوا العالمَ طويلًا، ولم يُهمّوا على الإطلاق هنا والآن. في نهاية القرن الرابع، سيطر سلوقس البابلي على معظم غرب آسيا، وهو ما كان يستحق السيطرة عليه، باستثناء النصف الجنوبي من سوريا وسواحل آسيا الصغرى وبعض الجزر القريبة منها، والتي إن لم تكن خاضعة لبطليموس المصري، لكانت خالية من كلا الملكين أو خاضعة لسيطرة ملك ثالث مقيم في أوروبا وسرعان ما ستختفي. ولولا هذين الملكين، لوجد سلوقس وبطليموس، وحدهما من بين جميع الخلفاء المقدونيين، سلالاتٍ حاكمةً

مقدر لها أن تدوم طويلًا في ممالك عظيمة بما يكفي للتأثير على التاريخ العام للحضارة في الشرق القديم.

لم يبقَ لسلوقس مؤرخٌ من الدرجة الأولى أو الثانية، وبالتالي، يبقى واحدًا من أكثر رجال الأعمال العظماء غموضًا في العصور القديمة. لا يسعنا إلا أن نقول القليل عنه شخصيًا، باستثناء أنه كان سريع البديهة، شجاعًا في العمل، مستعدًا للمخاطرة، قائدًا بالفطرة في الحرب، ورجلًا بعيد النظر وعزيمة مثابرة. كان الإسكندر يُقدّره ويُقدّره تقديرًا عاليًا، فزوجه من أباما، وهي سيدة إيرانية نبيلة، أقنعه برأيه بأن بابل هي نقطة انطلاق حكم إمبراطورية آسيوية. سمح سلوقس بتقسيم أراضي الرجل الميت لأول مرة، ولم يطلب ولاية إلا بعد انتهاء الاضطرابات الأولى وترسيخ صديقه بطليموس في مصر. كانت الولاية بابل. بعد أن طُرد بسبب حقد أنتيجونوس، استعادها بفضل بطليموس عام 312، وفرض سيطرته على جميع المرازبة الواقعة شرقه خلال السنوات الست التالية، ولم يترك سوى الهند، ثم اتجه غربًا عام 305 لغزو أنتيجونوس وقتله في إبسوس بوسط آسيا الصغرى. تم التخلص من الملك الثالث، ليسيماخوس من تراقيا، عام 281، وبعد وفاة سلوقس ببضعة أشهر، ترك لخلفائه من السلالات إمبراطورية آسيوية تضم اثنين وسبعين مقاطعة، تكاد تساوي مقاطعة الإسكندر، مع استثناءات مهمة في آسيا الصغرى.

في آسيا الصغرى، لم يسيطر سلوقس ولا السلوقيون على أي شيء بفعالية باستثناء خطوط الاتصال الرئيسية من الشرق إلى الغرب والمنطقة التي تنحدر منها هذه الخطوط إلى بحر إيجه. وظل الساحل الجنوبي، كما قيل، في أيدي المصريين طوال العصر السلوقي تقريبًا. أما الجنوب الغربي، فقد خضع لجمهورية جزيرة رودس. وحافظت معظم المدن البحرية اليونانية في الشمال الغربي والشمال على حريتها دون أي انتهاك تقريبًا؛

بينما توسعت تدريجيًا في الداخل، مملكة يونانية خالصة، هي مملكة بيرغاموم، نفوذها حتى إلى الصحراء الوسطى. في الشمال، نشأ حاجزٌ هائلٌ أمام التوسع السلوقي في غضون خمس سنوات من وفاة سلوقس، ألا وهو مستوطنةٌ للغاليين الذين دعاهم ملك بيثينيا لعبور المضيق. بعد شنّ هجماتٍ وغاراتٍ في جميع الاتجاهات، حُوصر هؤلاء الحلفاء العنيدون بفضل الجهود المتكررة لكلٍّ من السلوقيين وملوك بيرغامون في حوض سكاريا العلوي (الذي سيُعرف فيما بعد باسم غلاطية)، وهناك شكّلوا حاجزًا حافظت بيثينيا وبافلاغونيا خلفه على استقلالٍ راسخ. كان الشمال الشرقي أيضًا مقرًا لممالك مستقلة. لم تكن كابادوكيا وبونتوس وأرمينيا، التي حكمها أمراء من أصلٍ إيراني، جزءًا لا يتجزأ من الإمبراطورية السلوقية، على الرغم من صداقتها الدائمة مع حكامها. وأخيرًا، لم يسرِ النظام السلوقي في المناطق الجبلية في المركز، كما هو الحال في السواحل. عند النظر إلى الشرق القديم ككل، وليس فقط من وجهة نظر سلوقية، نجد أنه خلال القرن الذي تلا وفاة سلوقس (بعد ثلاثة وأربعين عامًا من وفاة

الإسكندر)، كان الهيلينيون يسيطرون سياسيًا على تسعة أعشار مساحته. أما الأجزاء التي كانت تسيطر عليها مدن يونانية بالفعل، أو بيرغاموم، فلا داعي للحديث أكثر من ذلك. أما سلوقس وخلفاؤه، فرغم أن الأخيرين، من أنطيوخس سوتر فصاعدًا، كانوا ذوي عرق إيراني، إلا أنهم أثبتوا أنهم يونانيون في جوهرهم. تُظهر صورهم، من البداية إلى النهاية، ملامح أوروبية، غالبًا ما تكون جيدة. وظل بطليموس لاغوس وجميع اللاجيديين يونانيين مقدونيين، رجلًا وامرأة، وحتى النهاية المريرة، حيث اتخذوا من أعظم مدينة يونانية في العالم مقرًا لهم. أما بالنسبة للعُشر المتبقي من الشرق، فقد كان يُحكم معظمه أمراءٌ ادّعوا لقب "محب للهلينيين"، وبرّروا ذلك ليس فقط بمودة سياسية للسلوقيين واليونانيين الغربيين، بل أيضًا بتشجيع المستوطنين اليونانيين والسلوكيات اليونانية. وبقدر ما عززتها رعاية القوى العليا وترويجها، حظيت الهلينية بفرصة جيدة في غرب آسيا منذ غزو الإسكندر وحتى ظهور روما في الشرق. فماذا كان استغلال هذه الفرصة؟ إلى أي مدى نجح أولئك الحكام اليونانيون والمقدونيون، والأمراء الإيرانيون المحبون للهلينيين وغيرهم، في إضفاء الطابع الهليني على غرب آسيا؟ إذا نجحوا إلى حدٍّ ما، ولكن ليس تمامًا لدرجة أن يتوقف الشرق عن التميز عن الغرب، فما هو المقياس الذي وُضع لتأثيراتهم المختلفة، ولماذا؟

دعونا نرى، أولًا، ما الذي قصدته الهلينية تحديدًا كما جلبها الإسكندر إلى آسيا ومارسها خلفاؤه. سياسيًا، كان هذا يعني اعتراف الفرد بحق المجتمع الذي ينتمي إليه في حسن نيته ومهامه، وهو حقٌّ لا ينتزع منه. لم يكن المجتمع المعترف به عائلةً أو قبيلةً، بل مدينةً ومقاطعتها الخاصة، متميزةً عن جميع المدن الأخرى ومقاطعاتها. لقد أدى التكوين الجغرافي وتاريخ اليونان، وهي دولةٌ تتكون في جزءٍ من سهول صغيرة تُحيط بها التلال والبحر، وفي جزءٍ من الجزر، إلى هذا التقييد للمجتمعات السياسية، وجعل الوطنيةَ تُعيق إخلاص اليونانيين لدولته المدينة. بالنسبة لدائرةٍ أوسع، لم يكن قادرًا على الشعور بأي شيءٍ يُشبه الشعورَ بالالتزام، أو حتى بأي التزامٍ مُلزمٍ على الإطلاق. إذا كان قد أقرّ بمطالبة مجموعة من المدن-الدول، التي ادعت، ولو من بعيد، أصلًا مشتركًا مع أصله، فقد كان شعورًا أكاديميًا: أما إذا كان واعيًا بمجتمعه مع جميع الهيلينيين كأمة، فلم يكن ذلك إلا في لحظات الخطر الشديد على يد عدو مشترك غير هيليني. باختصار، مع أنه لم يكن غافلًا عن مبدأ الجنسية، إلا أنه نادرًا ما كان قادرًا على تطبيقه عمليًا إلا فيما يتعلق بمجتمع صغير يمكن أن يعرف أعضاؤه شخصيًا، ويمكنه أن يجعل بينهم فردانيته محسوسة. لم يكن لديه تقاليد إقطاعية، ولا اعتقاد غريزي بأن الأفراد الذين يشكلون مجتمعًا يجب أن يكونوا تابعين لأي فرد واحد بحكم علاقة هذا الأخير الأبوية أو التمثيلية بهم.

دعونا نتناول هذا التضمين السياسي للهيلينية قبل أن ننتقل إلى خصائصها الأخرى. من الواضح أن الهيلينية السياسية، في نقائها، لم تكن متوافقة مع الدولة المقدونية الملكية، التي

كانت قائمة على الاعتراف الإقطاعي بالعلاقة الأبوية أو التمثيلية بين فرد واحد وشعوب عديدة تُشكل أمة. لذلك، لم يكن المقدونيون أنفسهم قادرين على نقل وطنيتهم الوطنية (التي ربما عززتها علاقاتهم مع المدن اليونانية عبر الأجيال الماضية) إلى آسيا، كما لم يكونوا قادرين على نقل معرفة خارجية بالوطنية المدنية لليونانيين. وبما أنهم استقدموا معهم عددًا كبيرًا من اليونانيين الأصليين، واضطروا إلى البحث عن توطينهم في آسيا كدعم لا غنى عنه لحكمهم وتجارتهم وحضارتهم، فقد كانوا ملزمين بتهيئة الظروف التي قد تستمر فيها الوطنية المدنية، التي كانوا يدركون قيمتها وخطورتها، إلى حد ما.

كانت سياستهم الواضحة هي تأسيس المدن أينما رغبوا في توطين اليونانيين، وعلى طول خطوط المواصلات الرئيسية، حيث يمكنهم تعزيز التجارة والعمل كحراس للطرق؛ وفي الوقت نفسه، نظرًا لاتصالهم المستمر ببعضهم البعض، وتعرضهم للمقيمين الأصليين والمهاجرين، واعتمادهم الضروري على مركز الحكومة، لم يتمكنوا من تكرار في آسيا الانعزالية الأنانية التي تميز المدن سواء في اليونان الأوروبية أو في وديان الساحل الغربي الأناضولي الضيقة والمنقسمة بشكل حاد. في الواقع، سواء أكان ذلك عن قصد أم لا، فقد تم إنشاء معظم المؤسسات السلوقية في مناطق مفتوحة نسبيًا.

يقال إن سلوقس وحده كان مسؤولاً عن خمس وسبعين مدينة، تركزت غالبيتها في ذلك الملتقى الكبير للطرق المباشرة، شمال سوريا، وعلى طول الطريق السريع الرئيسي عبر شمال آسيا الصغرى إلى أفسس. في هذه المدينة، قضى سلوقس نفسه معظم سنواته الأخيرة. لا نعرف إلا القليل من المستعمرات اليونانية، أو لا شيء على الإطلاق، التي أسسها هو أو سلالته خارج الحدود المبكرة للشرق القديم، حيث بنى الإسكندر جميع مدنه الجديدة تقريبًا في أفغانستان وتركستان والهند. ولعل خليفته رأى أن هذه المدن كافية؛ وربما لم ير أي فائدة أو أمل في النجاح في إنشاء مدن يونانية في منطقة شاسعة وغريبة كهذه؛ ومن المؤكد أنه لم يكن هو ولا سلالته في وضع يسمح لهم بدعمها أو صيانتها، لو أُسست شرق ميديا، كما كان الإسكندر وما اقترحه، لو كانت حياته أطول. لكن في غرب آسيا، من سلوقية على نهر دجلة، تلك المدينة الضخمة التي يزيد عدد سكانها عن نصف مليون نسمة، إلى لاودكية على نهر ليكوس وحدود ساحل أيونيا القديم، أسس سلوقس وخلفاؤه حياةً حضرية، فصاغوها في قالب هيليني، كان لشكله، الذي قُدِّر له أن يستمر لقرون عديدة قادمة، تأثيرٌ بالغ الأهمية على التاريخ المبكر للدين المسيحي.

بتأسيسهم هذا العدد الكبير من المجتمعات الحضرية ذات الطابع اليوناني، قدّم ملوك مقدونيا في غرب آسيا، بلا شك، الهيلينية كعاملٍ للحضارة السياسية في معظم أنحاء الشرق القديم، الذي كان بأمسّ الحاجة إليها واستفاد منها. لكن تأثير هيلينيتهم لم يكن قويًا ودائمًا إلا في تلك المجتمعات الحضرية حديثة التأسيس، أو المنظمة حديثًا، وفي جوارها المباشر. حيثما تجمّعت

هذه المدن بكثافة، كما هو الحال على طول نهر العاصي السفلي وعلى الساحل السوري، أو حيث استقر المزارعون اليونانيون في المناطق الفاصلة، كما هو الحال في سيرهيستيكا (أي تقريبًا وسط شمال سوريا)، قطعت الهيلينية شوطًا كبيرًا في جعل مناطق بأكملها تكتسب روحًا مدنية، والتي، وإن كانت تعني شعورًا أقل بالحرية والمسؤولية الشخصية مما هو عليه في أتيكا أو لاكونيا، إلا أنها كانت ستُدرك من قِبَل الأثيني أو الإسبرطي على أنها قريبة من وطنيته. أما حيثما كانت المدن متصلة بخطوط اتصال واحدة على فترات متباعدة، كما هو الحال في آسيا الوسطى وبلاد ما بين النهرين، فقد كان نفوذها السياسي ضئيلًا خارج أسوارها. فالهيلينية كانت ولا تزال في جوهرها سمةً لمجتمعات صغيرة بما يكفي ليمارس كل فرد نفوذه الشخصي على الممارسة السياسية والاجتماعية. بمجرد أن أصبح المجتمع، من حيث العدد أو التوزيع، يتطلب إدارة مركزية، أو حتى تمثيلية، حتى ولت، الوطنية الهيلينية. كانت عاجزة تمامًا عن التغلغل في شعوب بأكملها أو بناء أمة، سواء في الشرق أو في أي مكان آخر. ومع ذلك، في الشرق، لطالما كانت الشعوب أهم من المدن، أيًا كان من أسسها وحافظ عليها.

مع ذلك، لم يكن للهيلينية في ذلك الوقت دلالات سياسية فحسب، بل كانت لها أيضًا دلالات أخلاقية وفكرية كانت جزئيًا نتائج وجزئيًا أسبابًا لطاقتها السياسية. وكما قال مؤرخ معاصر من العصر السلوقي، فإن الهيلينية كانت تعني، إلى جانب العقيدة السياسية الاجتماعية، موقفًا فكريًا معينًا. كانت السمة المميزة لهذا الموقف ما يُسمى بالإنسانية، حيث استُخدمت هذه الكلمة بمعنى خاص للدلالة على الاهتمام الفكري المقتصر على الشؤون الإنسانية، ولكنه حر في نطاقها. لم يكن جميع اليونانيين، بالطبع، متساوين في الإنسانية بهذا المعنى. فبينهم، كما في جميع المجتمعات، وُجدت أمزجةٌ لجأت إلى التأمل المتعالي، وهذه الأمزجة المتزايدة، إذ مع فقدان حريتها، لم تعد دول المدن تمثل تجسيدًا لأقصى خير ممكن في هذا العالم، مما جعل الأورفية وغيرها من الطوائف الصوفية تسود أكثر فأكثر في هيلاس. ولكن عندما حمل الإسكندر الهيلينية إلى آسيا، كان لا يزال من الصحيح على نطاق واسع أن غالبية اليونانيين المتحضرين اعتبروا أي شيء لا يمكن إدراكه بالعقل من خلال الحواس ليس فقط خارج نطاق اهتمامهم، بل غير موجود.

علاوة على ذلك، بينما لم يكن هناك شيء مقدس لدرجة لا يمكن فحصه أو مناقشته بكامل قوة ذكاء الباحث، لم يكن هناك اعتبار سوى منطق الحقائق المدركة ليحدد استنتاجه. كان لا بد من اتباع حجة.

أينما قادت، ويجب مواجهة عواقبها بالكامل دون تراجع خلف أي ستار غير فكري. حرية فكر كاملة وحرية نقاش كاملة في جميع شؤون الإنسان؛ حرية كاملة في التصرف اللاحق، بحيث يبقى المجتمع سالمًا - هذا هو المثل الأعلى النموذجي للهيليني. كان جهده الغريزي لتحقيق ذلك موقفه المعتاد تجاه الحياة. كان شعاره يسبق قول الشاعر الروماني "أنا إنسان: لا شأن لي

بشيء بشري!". بحلول الوقت الذي اكتمل فيه الغزو الغربي لآسيا، كان هذا الموقف، الذي ازداد انتشارًا في مراكز الحياة اليونانية طوال القرنين الخامس والرابع، قد استبعد أي شيء يشبه التدين من الشخصية الهيلينية النموذجية. دين كان لدى اليوناني بالطبع، لكنه كان يتمسك به باستخفاف، لا مسكونًا به ولا حتى يتطلع إليه كمرشد في شؤون حياته. إذا كان يؤمن بعالم ما بعد القبر، فقد كان يفكر فيه قليلاً أو لا يفكر فيه إطلاقاً، مُصوغاً أفعاله بهدف السعادة الجسدية فقط. بدا له أن مصيره المحتمل في الآخرة لا علاقة له بسلوكه هنا. أنه قد يقضي الأبدية مع الإله، وهو بلا جسد، أو، منغمساً في الجوهر الإلهي، يصبح هو نفسه إلهاً - هذه الأفكار، وإن كانت غير معروفة أو خالية من الانجذاب إلى أرواح نادرة، كانت عاجزة تماماً عن مواجهة الاهتمام الشديد بالحياة وشهوة السعي المضني التي نشأت في العوالم الصغيرة لدول المدن.

إذن، لم يكن لدى الإغريق الذين انتقلوا إلى آسيا في أعقاب الإسكندر رسالة دينية للشرق، وكذلك القادة المقدونيون الذين خلفوه. وُلدوا وتربوا في خرافات شبه بربرية، وقد نبذوها منذ زمن طويل، بعضهم من أجل موقف التفكير الحر لليوناني، والجميع من أجل عبادة السيف. الشيء الوحيد الذي مثّل لهم، في حياة إمبراطورهم، دينًا هو إخلاصه الإقطاعي لنفسه ولعائلته. ولفترة من الزمن، استمر هذا الشعور في صفوف الجيش، كما أثبت يومينس، اليوناني الماكر، من خلال أسلوبه ونجاحه في مناشدته الولاء للسلالة الحاكمة في السنوات الأولى من صراع الخلافة؛ وربما نستطيع تتبعه لفترة أطول في القادة، كعنصر ممزوج بشيء من الحنين إلى الوطن وشيء من التقاليد الوطنية، في تلك الحتمية التي دفعت كل حاكم مقدوني في آسيا، أولًا أنتيجونوس، ثم سلوقس، وأخيرًا أنطيوخس الكبير، إلى التوق إلى امتلاك مقدونيا والاستعداد للمخاطرة بالشرق لاستعادة الغرب. في الواقع، إن أحد الأسباب المساهمة في فشل السلوقيين النسبي في الحفاظ على إمبراطوريتهم الآسيوية هو أن قلوبهم لم تكن أبدًا متعلقة بها تمامًا. أما البقية، فكانوا هم وجميع القادة المقدونيين على حد سواء رجالاً لا دين لهم بشكل واضح، آلهتهم هي أنفسهم. كانوا ما صنعهم العصر، وما تصنعه كل العصور المماثلة رجالاً أفعالاً. كان عصرهم عصر فتوحات واسعة تحققت حديثاً بحق القوة وحدها، وتركت لمن يكون الأقوى. كان عصراً أدرك فيه الفرد فجأة أنه لا توجد عيوب عرضية - كنقص النسب أو الملكية أو الحلفاء - تمنعه من استغلال مجال واسع من الإمكانات غير المحدودة لنفسه، فكان يتمتع بعقل سليم وقلب قوي وذراع قوية. وكما كان الحال في عصر الحروب الصليبية، وعصر الفرق الكبرى، وعصر الفتوحات النابليونية، كان كل جندي يعلم أن الأمر يتوقف عليه وحده وعلى الفرصة المتاحة له، سواء مات أميراً أم لا. كان زمنًا لجني ما زرعه الآخرون، وللحصول على أي شيء بلا مقابل، وللشهوة الجارحة واللامبالية للنهب، ولبيع الجسد والروح لمن يدفع أكثر، وللقيام على قانون لنفسه. في مثل هذه العصور، لا يُهمّ صوت الكاهن إلا صوت الضمير، وكلما ارتفع المرء، قلّ إيمانه بقوة تفوقه.

ومع ذلك، بعد أن سيطر هؤلاء المقدونيون الملحدون على الشرق، وجدوا أنفسهم بين أيديهم خليطًا من الشعوب، متباينين في خصائص عديدة، لكنهم جميعًا تقريبًا متشابهون في سمة واحدة، وهي تدينهم. تجمعت الآلهة وتكاثرت في آسيا. أظهر لها الرجال تفانيًا شديدًا متعصبًا أو قضوا حياتهم في التأمل في فكرة وجودهم، غافلين عن كل ما اعتبره المقدونيون جديرًا بالعيش من أجله، وحتى عن الحياة نفسها. كان الإسكندر سريعًا في إدراك تدين العالم الجديد الذي جاء إليه. إذا كان لسلطته في الشرق أن ترتكز على قاعدة شعبية، فقد كان يعلم أن هذه القاعدة يجب أن تكون دينية. بدءًا من مصر، ضرب مثالًا (لم يغب عن خليفته هناك) ليس فقط في مصالحة الكهنة، بل في تماهيه مع الإله الرئيسي على الطريقة التقليدية لملوك البلاد منذ القدم؛ ولا شك في أن عبادة نفسه، التي يبدو أنه فرضها بشكل متزايد على أتباعه ورعيته وحلفائه، مع مرور الوقت، قد صُممت عمدًا لتلبية تدين الشرق وأسره. في مصر، لا بد أنه آمون، في سوريا، لكان بعل، وفي بابل بل. ترك إيمان آبائه وراءه عندما صعد إلى الشرق، مدركًا، كما أدرك مؤرخه الفرنسي في القرن التاسع عشر، أن "أحلام الأوليمب في آسيا أقل قيمة من أحلام المجوس وأسرار الهند، الحاملة للروح الإلهية". وقد أبدى إعجابه الشديد بهذه الأخيرة، ويشير موقفه المدوّن تجاه البراهمة في البنجاب إلى أقدم اعتراف علني من قِبَل يوناني، بأن الغرب يجب أن يتعلم من الشرق في الدين.

ربما كان الإسكندر، الذي لم تُنسَه تقاليد وأساطير الشرق، قد أقنع التدين الآسيوي بتأليه نفسه لو عاش حياة أطول. أما خلفاؤه، فقد فشلوا في الحفاظ على ألوهيته حية أو في ضمان أي قبول عام لإلهيتهم. من الواضح أنهم حاولوا تلبية مطالب الشرق بعبادة عالمية جديدة ذات منفعة إمبراطورية، وأن بعضهم، مثل أنطيوخس الرابع، طاغية تاريخ المكابيين الأوائل، بذلوا قصارى جهدهم. إن فشلهم، وفشل روما من بعدهم، أمرٌ واضحٌ في تاريخ توسع ست طوائف شرقية قبل العصر المسيحي، وفي تاريخ المسيحية نفسها.

لم يرسخ الحكم المقدوني أساسًا دينيًا إلا في المقاطعة الأفريقية. ما لم يكن الإسكندر ليحققه في آسيا، حققه بطليموس بسهولة في مصر. هناك، نُصِّب الحاكم الفعلي، أيًا كان عرقه، إلهًا منذ زمنٍ بعيد، وتربع على العرش كهنوتٌ كلي القدرة، يسيطر على شعبٍ مطيع. شد الغزاة الآشوريون ظهورهم في مصر لتجنب إهانة آلهة وطنهم. لكن البطالمة، كالفرس، لم يرتكبوا مثل هذا الخطأ، وحصلوا على ثلاثة قرون من الحكم الآمن كمكافأة لهم. لا شك أن معرفة أن ما يطلبه الشرق يمكن توفيره بسهولة وأمان حتى من قبل المقدونيين في وادي النيل وحدهم كانت حاضرة في ذهن بطليموس الحكيم عندما ترك جميع الأراضي الأوسع تنتقل إلى الآخرين، واختار مصر في التقسيم الأول للأقاليم.

باختصار، لم يكن لدى اليوناني سوى فلسفاته ليقدمها لتدين الشرق. لكن فلسفة الدين تُكمل الدين، وتُؤثر عليه، وليست بديلاً كافياً لإشباع الرغبة الغريزية والعميقة للبشرية في الله. وبينما

استحوذت هذه الرغبة على العقل الآسيوي دائمًا، فإن اليوناني نفسه، الذي لم يكن غافلًا عنها بطبيعته، أصبح أكثر وعيًا بفراغه الخاص أثناء إقامته في آسيا. ما كان يُمثل له دينًا لفترة طويلة، ألا وهو التفاني الشديد للمجتمع، أصبح يجد ما يتغذى عليه أقل فأقل في ظل الحرية السياسية المقيدة التي أصبحت نصيبيه في كل مكان. ورغم شعوره بتفوق ثقافته في معظم جوانبها، إلا أنها كانت تفتقر إلى شيء واحد ضروري، وهو ما امتلكته الثقافات الأدنى من حوله بالكامل. ومع مرور الوقت، أصبح فضوليًا، ثم مُتقبلًا، للأنظمة الدينية التي وجد نفسه بين أتباعها، مُجبرًا بلا شعور على ذلك بكراهية الطبيعة للفراغ. ليس الأمر أنه ابتلع أي دين شرقي كاملاً، أو أنه فشل، وهو يستوعب ما أخذه، في تحويله إلى جوهره الخاص. ولا ينبغي أيضًا الاعتقاد بأنه لم يُقدم شيئًا على الإطلاق في المقابل. لقد قدّم فلسفةً، أثّرت في عقول الشرق العليا بنفس القدر الذي أثّرت به دياناتهم في ذكائه، فخلق النمط "الهلنستي"، كما يُسمى بالمعنى الدقيق للكلمة، أي الشرقي الذي جمع بين الغريزة الدينية لآسيا والروح الفلسفية لليونان - شرقيٌّ مثل (لنأخذ اسمين عظيمين جدًا)، الرسول الرواقي زينو، الفينيقي القبرصي، أو الرسول المسيحي شاول اليهودي الطرسوسي. وبخلق هذا النمط، أصبح الشرق والغرب أخيرًا قريبين جدًا من بعضهما، ولم يفصل بينهما سوى التمييز بين الفلسفة الدينية في أثينا والدين الفلسفي في سوريا.

تاريخ الشرق الأدنى خلال القرون الثلاثة الأخيرة قبل العصر المسيحي هو تاريخ الانتقال التدريجي للأديان الآسيوية غربًا لملء الفراغ الهيليني، وتاريخ الأفكار الفلسفية الهيلينية شرقًا لتكملة وتنقية الأنظمة الدينية في غرب آسيا. إلى أي مدى توغلت الأخيرة في القارة الشرقية الكبرى، سواءً حتى الهند أو الصين، فهذا ليس موضع نقاش: أما إلى أي مدى ستتجه الأولى غربًا، فهو مكتوب في التاريخ الحديث لأوروبا والعالم الجديد. إن توسع الميثراية وستة طوائف آسيوية ومصرية أخرى، والتي امتدت من الشرق إلى اليونان وما وراءها قبل نهاية القرن الأول من العصر الهلنستي، يشهد على الوجود المبكر لذلك الفراغ الروحي في الغرب، والذي كان على دين أعظم وأنقى، على وشك أن يولد في الجليل وينمو في أنطاكية، أن يملأه أخيرًا. إن دور الإسكندر وخلفائه في إحداث أو تكثيف ذلك الاتصال والتواصل بين الساميين واليونانيين، الذي أنتج الأخلاق الفلسفية للمسيحية وجعل توسعها غربًا أمرًا لا مفر منه.

إن ما يُحسب لهم، كحقيقة تاريخية بالغة الأهمية، يُكفّر عن أكثر من جميع خطاياهم. وهذا ما فعله السلوقيون إذًا - لقد جمعوا بين الغرب والشرق بحيث تعلم كلٌّ منهما من الآخر. ولكن لا يُمكن ادعاء أكثر من ذلك لهم. لم يُلغوا فردية أيٍّ منهما؛ ولم يُهلنوا غرب آسيا حتى بقدر ما نجحوا في الحفاظ عليه حتى النهاية. لقد فشلوا في ذلك ليس فقط للأسباب التي ذكرناها آنفًا - غياب الدين الحيوي لدى المقدونيين واليونانيين، وتدهور هيلينية الهيلينيين عندما توقفوا عن

كونهم مواطنين في دول المدن الحرة - ولكن أيضًا بسبب أخطاء فردية ارتكبوها، والتي تظهر مرارًا وتكرارًا مع استمرار السلالة الحاكمة في مسارها؛ وربما

62

وربما أكثر من ذلك لسبب أعمق، لم نفهمه بعد، ولكنه يكمن وراء القانون التجريبي القائل بأن الشرق شرق والغرب غرب. أما الملوك السلوقيون أنفسهم، فرغم قلة شهرة شخصياتهم وأفعالهم، إلا أنهم يتركون فينا انطباعًا واضحًا بقربهم من النمط التقليدي لليونانيين في العصر الروماني وما تلاه. كسلالة، يبدو أنهم سرعان ما أفسدتهم السلطة، وكانوا طموحين لكنهم راضون بسهولة بمظاهر النجاح، وكانوا عاجزين عن التنظيم الشامل ومحتقرين له، ولم يكن لديهم سوى القليل من السياسات، وكانوا أقل مثابرة في السعي لتحقيقها. صحيح أن معلوماتنا المتفرقة تأتي في معظمها من كُتّاب احتقروهم إلى حد ما؛ لكن التاريخ المعروف للإمبراطورية السلوقية، التي انتهى بها المطاف بانهيار سهل ومخزٍ للغاية أمام روما، يدعم الرأي القائل بأن ملوكها، مجتمعين، كانوا رجالًا سطحيين وحكامًا عشوائيين، مدينين للصدفة أكثر من الحكمة في صمود سلالتهم كل هذا الوقت. كانت سوريا أقوى معقل لهم، وفي النهاية معقلهم الوحيد. نربطهم في أذهاننا تحديدًا بمدينة أنطاكية العظيمة، التي أسسها السلوقي الأول على نهر العاصي السفلي لجمع التجارة من مصر وبلاد الرافدين وآسيا الصغرى في شمال سورية. ولكن، في الواقع، تدين تلك المدينة بشهرتها بشكل رئيسي إلى السادة الرومان اللاحقين. لأنها لم تصبح عاصمة السلوقيين المفضلة حتى القرن الثاني قبل الميلاد - حتى عام ١٨٠، عندما اضطرت السلالة، التي فقدت كلاً من المقاطعات الغربية والشرقية، إلى الاكتفاء بسوريا وبلاد الرافدين وحدهما. لم يقتصر الأمر على نزول البارثيين من تركستان إلى جنوب بحر قزوين (اتخذ ملوكهم أسماءً إيرانية، ولكن أليسوا، مثل حكام بلاد فارس الحاليين، أتراكًا حقًا؟)، بل إن ميديا أيضًا أكدت استقلالها، وسقطت بلاد فارس تحت حكم أمراء محليين في فارس. أصبحت سلوقية على نهر دجلة مدينة حدودية تقريبًا تواجه خطرًا إيرانيًا وفرثيًا، سمح عجز السلوقيين الإمبراطوري بالتطور، ولن تتمكن روما حتى من تبديده. على الجانب الآخر من الإمبراطورية، حُسمت قرن من الجهود السلوقية لتأسيس مقرات في غرب آسيا الصغرى، سواء في أفسس أو سرديس، ومن ثمّ تنفيذ مخططات خفية في مقدونيا واليونان، لصالح بيرغاموم بسلاح وتفويض من الحَكَم القادم في الشرق، جمهورية روما. بعد أن أُمر بالانسحاب جنوب طوروس بعد معركة مغنيسيا عام ١٩٠، وأُمر بالخروج من مصر على وجه السرعة بعد عشرين عامًا، عندما كان أنطيوخس إبيفانيس يأمل في تعويض خسارة الغرب والشرق بمكاسب الجنوب، لم يكن أمام السلوقيين خيار سوى عاصمة. من الآن فصاعدًا، إما أنطاكية أو لا شيء. مع ذلك، اضطرت سلالة مقدونية إلى التركيز في شمال سوريا على أي هيلينية كانت لديها (مع أن هيلينيتها تراجعت تدريجيًا بعد أنطيوخس إبيفانيس)

خلال القرنين الأخيرين قبل العصر المسيحي، وكان لذلك تأثير بالغ الأهمية على تاريخ العالم. فقد كان أحد السببين الحاسمين في زيادة تأثير الهيلينية على الساميين الغربيين، والذي انعكس في نهاية المطاف في الدين المسيحي. من كيليكيا شمالاً إلى فينيقيا وفلسطين جنوبًا، تأثرت كل هذه الثقافة الرفيعة والدراسات الفلسفية بالأفكار اليونانية، وخاصةً أفكار المدرسة الرواقية، التي كان مؤسسها ومعلمها الرئيسي (وهذا لا يُنسى أبدًا) ساميًا، وُلد قبل يسوع الناصري بنحو ثلاثمائة عام. جامعة طرسوس الهلنستية، التي درّبت شاول، والحزب الهلنستي في فلسطين، الذي أدى سعيه إلى جعل القدس أنطاكية جنوبية إلى اندلاع الصراع المكابيّ، كلاهما مدينان إلى حدٍ ما بوجودهما وحيويتهما المستمرة لوجود أنطاكية على نهر العاصي ونموها الأوسع.

لكن فينيقيا وفلسطين مدينتان بنفس القدر من هيلينيتهما (وربما أكثر) لمدينة هيلنسية أخرى وسلالة مقدونية أخرى - الإسكندرية والبطالمة.

ولأن الفترة المكابية القصيرة من تاريخ فلسطين، التي سيطر خلالها السلوقيون على كامل سوريا، معروفة جيدًا وعلى نطاق واسع، فمن المرجح أن تُنسى.

طوال معظم فترات العصر الهلنستي الأخرى، كانت جنوب سوريا، أي فلسطين وفينيقيا، بالإضافة إلى قبرص وساحل بلاد الشام الممتد حتى بامفيليا، تحت السيطرة السياسية لمصر. أضاف بطليموس الأول إلى ولايته بعضًا من هذه المناطق والمدن الآسيوية، وخاصة فلسطين وسوريا الجوفاء، بعد توليه قيادة مصر بفترة وجيزة، ولم يُخفِ نيته في الاحتفاظ بها، فبنى أسطولًا لضمان بقاء مصر. كان يعلم جيدًا أنه إذا أرادت مصر أن تحتفظ بأي إقليم خارج إفريقيا بشكل دائم، فلا بد أن تكون سيدة البحر. بعد نكسة قصيرة على يد ابن أنتيجونوس، عزز بطليموس قبضته بعد وفاة والده؛ وأصبحت قبرص أيضًا ملكه بشكل نهائي عام 294. أكمل خليفته، الذي تنازل عن العرش لصالحه بعد تسع سنوات، غزو سواحل البر الرئيسي المحيطة ببلاد الشام على حساب وريث سلوقس. في الواقع، احتفظ البطالمة بكل ما حققه أول ملكين من السلالة تقريبًا حتى حلت روما محلهما، باستثناء فترة تزيد قليلًا عن خمسين عامًا من عام 199 إلى حوالي عام 145؛ وحتى خلال الجزء الأخير من هذه الفترة، عادت جنوب سوريا تحت النفوذ المصري مرة أخرى، على الرغم من كونها اسميًا جزءًا من المملكة السلوقية المتداعية.

كان الهدف الذي سعى إليه ملوك مصر المقدونيون في غزو والاحتفاظ بشريط ساحلي ضيق من البر الرئيسي خارج إفريقيا وبعض الجزر من قبرص إلى سيكلاديز تجاريًا بحتًا، للسيطرة على تجارة بلاد الشام العامة وبعض الإمدادات الخاصة (ولا سيما أخشاب السفن) لمينائهم الملكي الإسكندرية. كان بطليموس الأول قد فهم جيدًا سبب تأسيس سيده لهذه المدينة بعد تدمير صور، ولماذا بذل كل هذه الجهود الكبيرة في وقت سابق ولاحقًا لتأمين سواحله على البحر

الأبيض المتوسط. حقق البطالمة هدفهم على أكمل وجه، رغم أنهم لم يقضوا على منافسة جمهورية رودس، واضطروا إلى التنازل لها عن قيادة بحر إيجة بعد معركة كوس عام ٢٤٦. لكن الإسكندرية كانت قد أصبحت بالفعل مدينة سامية يونانية عظيمة، واستمرت على هذا المنوال لقرون تالية. يُقال إن بطليموس الأول نقل إلى مصر آلافًا عديدة من اليهود الذين سرعان ما تكيفوا مع منفاهم، إن كان قد تم قسرًا في يوم من الأيام؛ ويمكن توضيح مدى ضخامة عدد سكانها اليهود في عهد بطليموس الثاني ومدى انفتاحها على التأثير الهيليني، بما يكفي من خلال حقيقة أن الإسكندرية، خلال ذلك العهد، ترجمت الكتب المقدسة العبرية إلى اليونانية من قبل مجموعة من علماء الساميين، والتي عُرفت منذ ذلك الحين باسم الترجمة السبعينية. على الرغم من أن سياسة البطالمة المتسقة كانت عدم تشجيع التبشير الهيليني، إلا أن التأثير الحتمي للإسكندرية على جنوب سوريا كان أقوى من التأثير الذي مارسه أنطيوخس إبيفانيس أو أي سلوقي آخر عمدًا؛ وإذا كانت المدن الفينيقية قد أصبحت موطنًا للعلوم والفلسفة الهيلينية بحلول منتصف القرن الثالث، وإذا كان يشوع أو ياسون، رئيس كهنة يهوه، عندما تقدم إلى صاحبه بعد مائة عام للحصول على إذن لجعل القدس مدينة يونانية، قد كان خلفه حزب قوي حريص على ارتداء القبعات في الشارع وعدم فعل أي شيء على الإطلاق في صالة الألعاب الرياضية، فإن الإسكندرية، وليس أنطاكية، يجب أن يكون لها الفضل الأكبر - أو اللوم الأكبر! قبل أن يتحول هذا المزج بين التدين السامي والأفكار الفلسفية الهيلينية، ومع شيء من النزعة الهيلينية القديمة، التي استمرت حتى في عهد السادة المقدونيين لتهذيب العقول الآسيوية، إلى المسيحية، كان نصف الشرق، مع ورثته المتفرقين من الإسكندر، قد خضع لنير روما المشترك والأقوى.

أعدت الإسكندرية البطلمية وأنطاكية السلوقية أرضًا سامية لبذرة دين جديد، لكن السلام الواسع والوطيد الذي سادت الإمبراطورية الرومانية هو الذي أتى به وأتاح له المجال للنمو. كان من المقرر أن ينمو، كما يعلم العالم أجمع، غربًا لا شرقًا، كاشفًا من خلال نجاحاته الأولى وإخفاقاته الأولى مدى مساهمة الهيلينية في تكوينه. ستُظهر الخريطة الآسيوية للمسيحية في نهاية القرن الرابع، على سبيل المثال، من وجودها الأخير، أنها كانت مُحددة بدقة بالحدود التي حملتها الإمبراطورية السلوقية إلى أي كيان كبير من اليونانيين، والحدود الأبعد التي طوّرها الرومان، الذين حكموا فعليًا مساحات واسعة تفوق أسلافهم المقدونيين - على سبيل المثال، معظم وسط وشرق آسيا الصغرى، وجميع أرمينيا - رعاياهم اليونانيين الرومان.

وخارج هذه الحدود، لم يكن من المُقدّر للهيلينية ولا للمسيحية في ذلك العصر أن تتجذر أو تُثمر ثمارًا دائمة. ظل الشرق الأقصى - الشرق، أي ما وراء الفرات - غير مُتقبلٍ وغير مُتسامحٍ مع كلا التأثيرين. لقد رأينا كيف سقط كل ذلك تقريبًا من أيدي السلوقيين قبل أجيال عديدة من ميلاد المسيح، عندما حررت مجموعة من الإمارات، الميدية والبارثية والفارسية

شوالنبطية، قلب الشرق من عبوديته القصيرة للغرب؛ وعلى الرغم من ذلك، إذا كانت روما، وبيزنطة من بعدها، ستدفع حدود النفوذ الأوروبي الفعال شرقًا إلى حد ما، فلن تتمكن هيلينيتهم من استقطاب ذلك التأثير الذي عجز السلوقيون عن استقطابه. هذا لا يعني أن شيئًا من الهيلينية لم يمر شرق بلاد ما بين النهرين ويترك بصمة راسخة. فالفن البارثي والساساني، والفن البوذي المبكر في شمال غرب الهند وتركستان الصينية، وبعض سمات الفن الإسلامي المبكر، وبعض سمات العقيدة والسياسة الإمبراطورية الإسلامية المبكرة، تُفند أي ادعاء جازم بأن شيئًا من الفن اليوناني لم يتجذر خارج حدود الإمبراطورية الرومانية. لكن هذا لم يكن سوى جزء ضئيل من الهيلينية، ولم يكن جوهرها على الإطلاق. يجب ألا ننخدع بمجرد استعارات من أشياء غريبة أو تقديرات عابرة للرفاهية الأجنبية. إن كون البارثيين يشهدون عرضًا لباخوس يوربيديس، عندما أُحضر رأس كراسوس التعيس إلى قطسيفون، لا يدل على امتلاكهم للروح الغربية، كما أن ذوقنا للتحف الصينية أو المسرحيات اليابانية يُثبت لنا اطلاعنا على روح الشرق.

في النهاية، ظل الشرق هو الشرق. لم يتأثر بالغرب إلا قليلاً، لدرجة أن تدينه سيحمل في النهاية دينًا آخر، مُناقضًا للهيلينية، ولم يُضعف إلا قليلاً، لدرجة أنه سيستعيد كل ما فقده وأكثر، ويُحافظ على استقلال آسيا سياسيًا وثقافيًا عن الغرب حتى يومنا هذا. إذا كانت أوروبا الحديثة قد استولت على أجزاء من الشرق الباهر، كتعويض، لم تكن تحت سيطرة المقدونيين أو الرومان، فلنتذكر في فخرنا العرقي أن كل ما كان للمقدونيين والرومان في آسيا تقريبًا قد فُقد للغرب منذ ذلك الحين. قد تنتصر أوروبا هناك، وربما ستنتصر هناك مرة أخرى؛ ولكن بما أنه يجب أن يكون ذلك بفضل حضارة كان خلق دين مولود في آسيا هو العامل الأهم الذي لا غنى عنه، فهل سيكون الغرب حتى في هذه الحالة دائنًا أكثر من مدين للشرق؟

ملاحظة حول الكتب

المراجع المذكورة في نهاية كتاب البروفيسور ج. ل. مايرز "فجر التاريخ" (وهو مرجع بحد ذاته)، والمحفوظة في مكتبة الجامعة الرئيسية، مناسبة إلى حد كبير لمن يرغب في الاطلاع على نطاق أوسع حول موضوع هذا المجلد، لأن تلك المراجع (مثل الأعمال الجغرافية المذكورة في "فجر التاريخ"، صفحة ٢٥٣، الفقرة ٢) التي لا تُعدّ مقدمات أساسية لدراسة الشرق القديم في أي فترة، تتناول في الغالب العصر التاريخي وكذلك العصر ما قبل التاريخي. ولتجنب عناء الرجوع إلى مجلد آخر، سأكرر هنا الكتب الأكثر فائدة في قائمة البروفيسور مايرز، مع إضافة بعض الكتب الأخرى، التي ظهر بعضها منذ صدور مجلده.

بالنسبة لتاريخ المنطقة بأكملها في الفترة التي يغطيها مجلدي، يُعد كتاب "تاريخ العصر" لإ. ماير، الذي تُجرى حاليًا ترجمة فرنسية له، وقد صدر جزء منه بالفعل، المرجع الأكثر موثوقية. لا يزال كتاب السير ج. ماسبيرو "تاريخ شعوب الشرق القديم" (الترجمة الإنجليزية في ثلاثة مجلدات، تحت عناوين "فجر الحضارة" (مصر والكلدانيين)؛ و"صراع الأمم" (مصر وسوريا وآشور)؛ و"زوال الإمبراطوريات") ذا قيمة، ولكنه أصبح عتيقًا. وقد ظهر مؤخرًا كتاب أحدث وأسهل استخدامًا من كليهما، وهو كتاب السيد هـ. ر. هول "تاريخ الشرق الأدنى القديم" (1913)، الذي يجمع ليس فقط ما ورد في كتب السيد هول والسيد كينغ التي استشهد بها البروفيسور مايرز، بل أيضًا محتويات كتب ماير وماسبيرو، وغيرهما، ونتائج أبحاث أحدث، شارك المؤلف في بعضها. ويشمل هذا الكتاب في نطاقه كلاً من مصر ومنطقة بحر إيجة، بالإضافة إلى غرب آسيا. بالنسبة للتاريخ الخاص ببابل وآشور وإمبراطوريتيهما، فقد تم تحديث كتاب ر. و. روجرز "تاريخ بابل وآشور"، المكون من مجلدين، وهو الملخص الأنسب للقارئ الإنجليزي. أما كتاب هـ. وينكلر "تاريخ بابل وآشور" (الذي ترجمه ج. أ. كريج من الألمانية عام ١٩٠٧) فهو أكثر تألقًا وإيحاءً، ولكن يجب استخدامه بحذر أكبر. أما كتاب أ. ت. أولمستيد "غرب آسيا في عهد سرجون الآشوري" (١٩٠٨) فهو دراسة قيّمة للإمبراطورية الآشورية في أوجها.

بالنسبة للإمبراطورية والحضارة الحثية، يُعد كتاب ج. جارستانج "أرض الحثيين" (١٩١٠) أفضل كتاب حديث يهدف إلى أن يكون شاملاً. ولكن يجب أن يؤخذ في الاعتبار أن هذا الموضوع في بوتقة انصهار حاليًا، وأن الحفريات الجارية قد أضافت الكثير إلى الأدلة المتاحة، وأن القليل جدًا من أرشيفات بوغازكوي قد نُشر عند صدور كتاب جارستانج. تُلخص مقالات د. ج. هوغارث عن الحثيين، في Enc. Brit وEnc. Brit. Year-book، بعض الأبحاث الأحدث؛ ولكن لا يوجد ملخص لأبحاث الحثيين مُحدّث حقًا.

بالنسبة للتاريخ السامي السوري، من المرجح أن يكون روجرز ووينكلر، كما ذُكر سابقًا، كافيين؛ وكذلك بالنسبة لشعوب أورارتو. بالنسبة لغرب آسيا الصغرى واليونانيين، بالإضافة إلى كتاب د. ج. هوغارث "أيونيا والشرق"، تُقدم الطبعة الجديدة من كتاب بيلوخ "التاريخ اليوناني" كل ما يحتاجه القارئ العام، بل وأكثر. إذا كانت اللغة الألمانية تُشكّل صعوبة عليه، فعليه الرجوع إلى كتاب "تاريخ اليونان" لجيه. بي. بوري، والجزء الأخير من كتاب "تاريخ الشرق الأدنى القديم" لهول، المذكور آنفًا. أما بالنسبة لغزو الإسكندر، فيمكنه الرجوع إلى كتاب "تاريخ العصور الهلنستية"، المجلد الأول (1901)، أو كتاب "تاريخ الدول اليونانية والمقدونية" لـ ب. نيسه (1899)، أو كتاب "فيليب والإسكندر المقدوني" لـ د. ج. هوغارث (1897)؛ لكن العمل العظيم لـ ج. ج. درويسن، "الهيلينية" (الترجمة الفرنسية)، يكمن وراء كل هذه المصادر.

66

وأخيرًا، سيُقدّم المجلد الإنجليزي الرابع من كتاب "تاريخ اليونان" لـ أ. هولم (1898) وكتاب "بيت سلوقس" لإي. آر. بيفان (1902) معظم ما هو معروف عن العصر الهلنستي في آسيا.

النهاية

****